

مجلة جامعة البحر المتوسط الدولية

العدد الثاني - مارس 2017

مجلة علمية محكمة

journal@miu.edu.ly

ماذا حدث لليبيين القدماء؟
تعقب المصادر عبر الصحراء من هيرودوت إلى ابن خلدون

كتبه ريتشارد سميث[41]
ترجمه أ. عبد الله علي الرحيبي
(جامعة بنغازي كلية الآداب – قسم الآثار)

مقدمة:

شكر وتقدير: يسرني أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى د . خديجة أبو عروش، و د. نجيب الحصادي، و د. صباح عبود جاسم، والأستاذ أحمد أبو زيان، والأستاذة إيزابيلا سوجور على تكرمهم بمساعدتي في فهم بعض الجمل الغامضة و نقلها إلى اللغة العربية، و لا بد لي من التوجه بشكر خاص للدكتور رمضان المجراب الذي راجع الموضوع و أبدى عليه ملاحظات قيمة أخذها المترجم في الحسبان. و الشكر موصول بالطبع إلى الأستاذ علي حديد الذي تكرم مشكوراً بمراجعة الموضوع من حيث سلامة لغته العربية.

ملاحظة: ملاحظات المترجم، و المصادر التي رجع إليها و دونها في الهوامش مذيلة كلها بصفته.

يعد نظم التاريخ العرقي للعالم القديم على نحو منهجي مهمة مستحيلة، كما يعد مصير المجموعات التي عاشت خارج حدود المدينة و الإمبراطورية مشكلة محيرة حقاً: إذ يظهر المئات منهم في السجل التاريخي و يختفون، و نظن أننا نعرف ما حدث لقليل منهم، مثل الفرنجة، و الإنجليز، و السكسون، و من ناحية ثانية يختفي الكثير منهم تماماً من السجل التاريخي، ربما ضحايا لمجموعات أكبر، أو أكثر تفوقاً من الناحية العسكرية، و رغم أن اختفاء هُوية ما يعني على الأرجح الاندماج أو التجزئة أكثر من كونه إبادة كاملة[42]، و حتى الشعوب المشهورة أو المشهورة لسوء سمعتها يؤدي بها المطاف إلى نهايات غامضة: فقد تلاشى السكيثيون، في حين فقد الهون تفوقهم الحربي الوارد ذكره في التاريخ و انسحبوا على نحو مفاجئ. و ماذا عن الشعب الذي أسماه الإغريق "ليبيون" لا سيما أولئك الذين عاشوا في الصحراء؟[43] هل كان الليبيون الذين وصفهم هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد هم الشعب نفسه الذي كتب ابن

---

[41]- Richard L. Smith, What happened to the Ancient Libyan, Chasing sources across the Sahara from Herodotus to Ibn-Khaldun. Journal of World History, Vol. 14, No. 4, December 2003, pp. 459-500, University of Hawai'i Press.

[42] يروي هيرودوت في تناوله لشمال أفريقيا قصة البسيلي، "قبيلة تعرضت للإبادة" الذين بعد ما جففت رياح الصحراء مياه أبارهم، زحفوا لخوض معركة ضدها فدفنتهم أحياء (IV.173). ويؤكد بليني الأكبر على نحو متعقل أن القبيلة "أبيدت تقريباً" في حرب مع جيرانهم، النسامونيين، ولكن أحفادهم الذين هربوا "باقون اليوم في أماكن قليلة" (VII.2.14). ولا يذكر سترابون حرباً خاسرة ضد رياح الصحراء أو ضد النسامونيين، ولكن يذكر أن البسيلي ما يزالون موجودين فقط، يشغلون "إقليم قاحل وجاف"(XVII.3.23) يقع أسفل النسامونيين. وأضفى الكتاب المتأخرون، لا سيما الشعراء، على الباسيلي سمعة أنهم حواة مشهورين.

[43] قسم أغلب الجغرافيين القدماء العالم إلى ثلاث قارات: أوروبا، وأسيا وأفريقيا، بالرغم من أن كلمة أفريقيا لم تستعمل قبل العصر الروماني، وكانت حينها تعني المنطقة التي حول تونس الحالية فقط. وكان يشار إلى قارة أفريقيا عادة بوصفها "ليبيا" التي كانت مقسمة إلى ثلاثة أجزاء صغيرة، كان أحدها يسمى ليبيا أيضاً. وكان الجزءان الآخران هما مصر وإثيوبيا. ويخصص سترابون قسم مطول ليحل المشاكل الجغرافية المتعلقة بإثيوبيا؛ انظر جغرافيته، (I.2.24 -28).

خلدون عنه تحت اسم صنهاجة بعد ذلك بألفي سنة تقريباً؟ و من النادر أن يقدم التاريخ العرقي إجابات قاطعة بنعم و لا.

و يظهر أن الشعوب الأصلية لشمال أفريقيا تتواصل لفترات زمنية طويلة مع قليل من التغير الملحوظ، و يحدث هذا التحول على نحو دوري مرتبط عادة بنتائج كارثية كبيرة: و تصبح الصحراء أكثر جفافاً، و ما تزال كذلك، و تنهار الإمبراطورية المصرية في الشرق، و بعد ذلك بألف سنة تنهار الإمبراطورية الرومانية في الشمال، و تنهار، بعد ألف سنة أخرى إمبراطورية سونغاي في الجنوب، و ينتشر الإسلام في شمال أفريقيا و يتردد صداه عميقاً في الدواخل شاقاً طريقه عن طريق الحرب و التجارة إلى ما بعد الحافة الجنوبية للصحراء، و يظهر العرب الهلاليون، و هم عنصر عرقي جديد، مؤثرين في السياسة، و اللغة، و الثقافة. و لكن هل نموذج التحول هذا موهوم، بحيث لم ينتج عن تغير جذري بقدر ما نتج عن تغير في المنظور الذي يلزم أن نلحظ منه موضوعنا؟ ذلك أننا في نهاية المطاف إنما ندرس هذا التاريخ عبر مداخل زمنية معينة، و ليس من منظور (بانورامي) شامل.

و تظهر أربعة مداخل تغطي الأربعة ألاف سنة الماضية، يجسد كل منها نظرة إلى شعوب شمال أفريقيا من الخارج، و يأتي الأول من مصريي الألفين الثالث و الثاني قبل الميلاد الذين صاغوا مشاهد فنية و كانوا يعلقون من حين إلى آخر على جيرانهم التحنو، و التمحو، وفيما بعد الليبو، و المشواش و تم فتح مدخل ثان، بعد ذلك بألف سنة، في عصري الإغريق و الرومان، بداية بهيرودوت و نهاية ببروكوبيوس. و برز بعد عدة قرون مدخل جديد و ذلك بفضل الجغرافيين و المؤرخين العرب الذين دونوا بالعربية بداية من اليعقوبي في أواخر القرن التاسع الميلادي و بلغ ذروته بابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي حيث حلت فيه صنهاجة و زناتة محل ليبيو هيرودوت. و يفتح المدخل الأخير في النصف الثاني من الألف الثاني بعد الميلاد بعمل ليو الأفريقي، و يبلغ الذروة في نهاية العصر الاستعماري بعمل هنرك بارث. و صارت صنهاجة و عشيرتها هما الطوارق و المغاربة.

لم تكن المجتمعات ساكنة أبداً، إذ تتطور السمات الثقافية و النماذج الاجتماعية عبر الزمن، و هناك عدد كبير من التغيرات الدقيقة المتواضعة تعيق التاريخ عن التحرك الطبيعي نترجمها بوصفها عملية تواصل تحدث داخل المداخل و فيما بينها، و هناك نموذج عضوي يكمن خلف النموذج التحولي، و قد تبين نظرة فاحصة خلال أحد المداخل أن الناس ليسوا هم أنفسهم تماماً، و غير مختلفين كلية عن المداخل السابقة أو اللاحقة، و تستوجب الأحقاب بين المداخل حدوث تحولات يجب أن تأتي من ذهن المؤرخ، و يجب أن تملأ الفجوات بين المداخل عن طريق دليل بسيط من كلا الجانبين متحد مع جرعة استدلال سليمة و مقياس حدسي ثابت، يقوم بذلك و لكن ليس على نحو منتظم.

و ليس مدهشاً أن عملا كثيراً قد أنجز على المدخل الرابع يفوق ما أنجز على المداخل الثلاثة الأخرى، و يبدو أن الانتقال بين المدخلين الثالث و الرابع واضح تماماً. و يستطيع المدخل الأول استخدام أدلة داعمة من الفن الصخري و لكنها تبقى في مدى فهم قلة من المتخصصين.[44] و بالرغم من محدودية المعلومات المتاحة، يبدو أن النموذج العضوي قادر على الصمود في الانتقال بين المدخلين الأول و الثاني. و من الواضح أنه يمكننا رؤية سبعة قرون أو أقرب من ذلك

[44] ينظر من أجل العينة:
Libya and Egypt c. 1300-750 B.C., ed Anthony Leahy (London: SOAS Center of Near and Middle Eastern Studies, 1990).

من التغيير بين الليبو في عهد المملكة الجديدة المصرية و ليبيي هيرودوت، و لكن لا نشك في أنهم شعب مختلف تماماً، و تظهر المشكلة بين المدخلين الثاني و الثالث نتيجة لقلة التواصل، و يظهر أننا سنطل على عالم جديد كلية.

و يبدو أن شعوب شمال أفريقيا في الفترة الواقعة بين هيرودوت و بروكوبيوس، و هي ألف سنة، و بين اليعقوبي و ابن خلدون، و هي خمسمائة سنة، قد خضعت لتغير أقل كثيراً من التغير الذي حدث في الفترة الفاصلة بين بروكوبيوس و اليعقوبي، و هي ثلاثة قرون فقط، و تبحث هذه الورقة في مشكلة هوية و تضيف لشعب عاش في زمن ومكان معينين معلومات عنهما شحيحة نسبياً. و في هذا النوع من التاريخ فإن وجهة النظر يعول عليها كثيراً، و لذلك تصبح المصادر جزءًا متمماً للموضوع. و يلقي الثلث الأول من هذا البحث نظرة على المعلومات المطلوبة للاكتمال الثلثين الأخيرين. و يركز الثلث الثاني على الموضوع العام للتصنيف الاجتماعي و العرقي، وبصفة خاصة على المعيار الذي استخدم في تحديد هوية الناس و تصنيفهم، و يعود القسم الأخير إلى مشكلة الليبيين و الصنهاجيين الأساسية، و يعكف المؤرخون على خلق نماذج تواصل، و بالتالي ما الذي يمكن عمله مع حالة واضحة من الانقطاع؟

و يكمن جزء كبير من المشكلة في اعتماد المؤرخين بدرجة مبالغ فيها على فهم التصنيف العرقي في الروايات المكتوبة، و من دون شك نحتاج إلى نظام أكثر شمولية في منهج البحث، و لسوء الحظ من المستبعد أننا سنطور ذلك في المستقبل القريب. و تستطيع الآثار تقديم بعض الأجوبة حول الماضي لا سيما في مواضيع مثل التقنية، و الثقافة المادية، و الصحة، و الاقتصاد. و يستطيع الأثريون أحياناً فحص هيكل عظمي وجد في مكان ما من الصحراء و يعلنوا أنه من نوع البحر الأبيض المتوسط أو من نوع سوداني، و يشير استعمال الفخار الذي يحتوي على علامات مميزة إلى الروابط التجارية و الثقافية بين شعوب متباعدة. فعلى سبيل المثال عند الانتقال من المدخل الثاني إلى الثالث بينت الأساليب المعمارية في مشروع اليونسكو لدراسة الأودية الليبية درجة مدهشة من التواصل بين العصرين الكلاسيكي و الإسلامي.[45]

و يجب على أي مؤرخ في التاريخ القديم استعمال كل كبيرة و صغيرة يطرحها الأثري على الطاولة، و هذا عمل مفيد للغاية في تصنيف الشعوب على نحو أوسع، و لكن من المستبعد أن يخبرنا لماذا أحدث هيرودوت تمييزاً بين آتارانتس، و أتلانتس[46]، أو لماذا ميز ابن خلدون اللمطيين عن اللمتونيين. و لا يوجد وصف في أية رواية يعادل محتويات القبر، بالرغم من ميل الثقافة المادية و العرقية لتصبح غير واضحة، طارحة السؤال حول عما يحتويه العرق في البيئة القديمة.

و يستطيع الدليل اللغوي أن يكون عاملا مساعداً أيضاً، لا سيما لأسماء المواقع الجغرافية الباقية، و كانت هوارة – وفقاً لابن خلدون – قبيلة في الأصل من طرابلس و من الواضح أنها انتقلت، و ذلك من خلال إعطاء اسمها لإقليم

[45] G.D.B Jones and G.W.W. Barker, Libyan Studies 11 (1980): 11-36; G.W.W. Barker and G.D.B. Jones, Libyan Studies 12 (1981): 9-48 and 13 (1982): 1-34.

[46] يقول هيريدوت: وهناك، على بعد رحلة عشرة أيام عن الجرمنتيين [غرباً] هضبة أخرى ونبع وهي موطن الأترانتيين Atarantes، وهم الشعب الوحيد في العالم، في حدود علمنا، لا أسماء لهم، ويطلق الاسم عليهم جميعاً، ولا أسماء فردية لهم. وهم يلعنون الشمس حين شروقها ويصفونها بكل صفات التحقير لأنها تضر بهم، وتحرقهم هم وأرضهم. ويقول أيضاً: وهناك، مرة أخرى على بعد رحلة عشرة أيام [عن الأترانتيين غرباً] هضبة ملحية، ونبع وبقعة من بلاد مسكونة يجاورها جبل أطلس الذي له شكل مخروط شديد الارتفاع، ويقال أن قمته لا ترى تحجبها السحب صيفاً وشتاء، ويطلق عليه السكان (المعروفون باسم الأنطلنطيين، نسبة للجبال) اسم عمود السماء، ويقال أنهم لا يأكلون الكائنات الحية، ولا يحلمون أبداً. المترجم.

Herodotus, the Histories: translated by Aubrey de Selincourt, Revised, with an introduction and notes by A. R. Burn, Penguin Books, 1977, Book 2, p. 332-3.

المرتفعات العظيمة في الصحراء الوسطى المعروفة اليوم باسم الهقار (هوقار) و من ثم إلى توارق كيل أهقار المشهورين.[47] و كان إقليم فزان في جنوب غرب ليبيا يعرف باسم "طارقا" (الحديقة)، و كانت تارقا (تارجا) في زمن ابن خلدون إحدى تقسيمات قبيلة صنهاجة التي شغلت جزءًا من الصحراء التي ضمت فزان، و أغلب الظن أن هذا هو أصل كلمة "توارق".[48] و إن الواحتين المعروفتين لدى الرومان باسم سيداموس، و بيسيرا هما اليوم غدامس و بسكره على التوالي. و هذا النوع من التاريخ هو سهل للغاية في الأغلب حينما تنجح عملية تطبيقه و لكن ليس دائماً. و يمكن تضمين ليبيا الحديثة في ما عده هيرودوت ليبيا، و لكن موريتانيا الحديثة لا تقع حتى على حدود مملكة العصر الروماني، أو الأقاليم اللاحقة لموريتانيا، و أظهرت رواية هيرودوت عن سكان الهقار اختلافاً كبيراً عن رواية ابن خلدون، فهو يدعوهم "الأطلنطيون The Atlantes"، و يمثلون حد العالم في اتجاه واحد على الأقل، وأصبحوا بالنسبة لكتاب أولهم أفلاطون هم سكان أطلانتس Atlantis،[49] و تمتد بلدهم من سلسلة جبلية حقيقية وسط الصحراء إلى قارة أسطورية وسط المحيط، و يعد من الخطر في أغلب الحالات استعمال علم أسماء المواقع الجغرافية، أو على مستوى أوسع علم أصل الكلمات و تاريخها دون دعم قوي من مصادر أخرى، و من المستبعد أن يقدم الدليل اللغوي نتائج تاريخية: وت حدد اللغة، في أحسن الأحوال، الوجهة كما تبين الاحتمالات، و يستطيع التاريخ عادة تفسير ظاهرة اللغة على نحو أسهل من العكس بالعكس.[50]

و أثبت السرد الشفهي أنه مفيد في أفريقيا الغربية و أجزاء من الصحراء في المدخل الرابع، و أحياناً حتى في المدخل الثالث، و كثير مما يعد الآن أدلة أدبية هي مجرد معلومات منقولة شفهياً دونها شخص ما مثل هيرودوت أو ابن خلدون. و يستطيع التحدار الشفهي حفظ تاريخ كثير، و لكن من النادر أن يتمكن من الصمود لوحده بوصفه تاريخاً، إذ يتم تحريف التاريخ بكل سهولة عند تناقل القصص من شخص إلى آخر، و يتأصل التاريخ المكتوب الأسوأ أحياناً في التحدار الشفهي. و تأتي أغلب الأدلة المتاحة عن شمال أفريقيا القديمة، بكل محاذيرها و محدوديتها من الروايات المكتوبة، و هذه تعني ملاحظات الغرباء.[51] و يمكن تقسيم الكتاب الكلاسيكيين إلى ثلاث مدارس: و يعد هيرودوت

---

[47] Ibn Khaldun, Histoire des Berberes et des Dynasties Musulmanes de l'Afrique Septentrionale, 4 vols., trans. Baron de Slane (Paris: Librairie Orientaliste, 1925-1956), 1, p. 275.

[48] الافتراض المتواتر لمصطلح "توارق"، وهو ربما يعود في الأصل إلى العرب، ولكنه وثق لأول مرة عن طريق هنرك بارث Heinrich Barth المكتشف اللغوي الذي عاش في القرن التاسع عشر الميلادي، له معنى الخزي "تارك لدينه" إما لأن هؤلاء الناس كانوا مسيحيين في الأصل (وهو أمر مستبعد جداً) أو كانوا مسلمين مرتدين، ولذلك تحولوا إلى الإسلام أربع عشرة مرة قبل أن يصبحوا مسلمين حقاً (يحتمل أن هذا محل شك). ولم يشر الذين يدعون توارق إلى أنفسهم بهذا الوصف ويفضلون تسمية "كل تاما شق" "الذين يتكلمون تاما شق"، أو كل تيغلمست "أهل الخمار" [الملثمون].

[49] جزيرة أسطورية أو قارة أفترض وجودها في العصور القديمة غمرتها مياه المحيط الأطلسي إلى الغرب من مضيق جبل طارق، ويشار إليها عادة باسم القارة المفقودة. المترجم.

[50] J. Bynon. 'The Contribution of Linguistic to History in the Field of Berber Studies," in Language and History in Africa, ed. David Dalby (London: Frank Cass and Co., 1970), p. 64.

[51] لدى البربر القدماء نظامهم الخاص في الكتابة كامل الحروف يشار إليه بوصفه ليبي قديم أو نوميدي. وما تزال نسخة باقية تسمى تيفيناغ ما يزال توارق عمق الصحراء يستعملونها في الأغلب بوصفها مخربشات صخرية. وهي غير ملائمة للكتابة، ومجهدة في القراءة، ومن غير المدهش أن لا يوجد نص أدبي مكتوب بها. انظر:

J. B. Chabot, Recueil des Inscriptions Libyques (Paris: Imprimerie Nationale, 1940), and J. Fevrier, "Que savons-nous du Libyques?" Revue Africaine, C (1956): 263-273.

و الملقب بأبي التاريخ و بأبي الأكاذيب بالنسبة للمتنقصين من قدره المصدر الأقدم و الأهم، ولد هيرودوت في مدينة هاليكارناسوس في ثمانينات القرن الخامس قبل الميلاد و توفي في عشرينات القرن نفسه (480-420 ق. م)، ممضياً أغلب حياته المبكرة متنقلا حول الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط مع قيامه برحلات قصيرة إلى غاية بلاد ما بين النهرين، و البحر الأسود، ومصر الجنوبية. و تتضمن المرحلة الأولى من عمله بحوثاً طويلة في بعض الأحيان عن الشعوب غير الإغريقية بما في ذلك الليبيين، حيث يدرس هيرودوت ملامح ثقافية و جغرافية وصفية و يضمن أخباراً ممتعة من التاريخ مختلطة غالباً بمقدار وافر من القصص القديم، و الأساطير. و يراه منتقصوه المعاصرون كاتباً يسترضي الجماهير الإغريقية بخرافات و ليس بمواضيع جوهرية، و يفضل دائماً الغريب على المألوف، تاركاً في الخلف صورة مشوهة عن عالمه. و من دون شك تميل عوامل قوة هيرودوت نحو النمط السردي أكثر من النمط التحليلي، و كان نصيراً متحمساً غير مرتبك في استطراداته، و يلفت المدافعون عن هيرودوت نظر زملائهم بأنه جمع كمية هائلة من الحوادث، بعضها مفيد جداً، و بعضها غير مفيد، و لم يسلم هيرودوت التاريخ لقمة سائغة لكم؛ فإن أردتم الاستفادة من آرائه عليكم أن تشمروا عن سواعدكم.[52]

و ينظم إلى هيرودوت سترابون، و بليني الكبير، و ديودور الصقلي .Diodorus Siculus و كان سترابون، و هو أحد مواطني مملكة بونتوس الهلينية على البحر الأسود، معروف بين معاصريه بعمله العظيم المفقود حول التاريخ، و ليس بعمله الباقي المتعلق بالجغرافيا. و امتدت حياته في القرنين الأولين، قبل الميلاد و بعده و بالتالي فقد شاهد البحر الأبيض المتوسط الروماني في مستهل عصره الذهبي، و بالرغم من أنه أكثر دقة في منهجه البحثي من هيرودوت، فإن سترابون يدّعي امتلاكه لخبرة كافية عن ليبيا: و هو يعترف بأن "أغلب أهالي ليبيا غير معروفين لنا،" لأن أغلبها لم تزره الجيوش، و لم يزره حتى أناس من قبائل خارجية، و لم يكن العدد الذي زارنا من السكان المحليين محدود جداً فحسب، بل لم يكن ما يقولونه جدير بالثقة أو كامل أيضاً.[53]

عاش بليني الكبير في القرن الأول الميلادي بعد سترابون بفترة قصيرة، وكان من سلالة رومانية أصيلة و أمضى أغلب حياته جندياً وموظفاً إمبراطورياً، وهو كاتب غزير الإنتاج، و معروف جيداً من خلال كتابه حول التاريخ الطبيعي Naturalis Historia، و لسوء الحظ يحتوي القسم المخصص لشمال أفريقيا على معلومات قليلة أصلية رغم احتمالية قيامه بالخدمة هناك في وظيفة رسمية، و نقلت أجزاء منه من هيرودوت مباشرة.[54] أما ديودور الصقلي فهو

---

[52] هناك ترجمة حديثة جيدة لتواريخ هيرودوت قام بها Robin Waterfield (Oxford: Oxford University Press, 1998). و كتبت مقالات كثيرة و كتب تمجد أو تعري هيرودوت بالرغم من أن فصله حول شمال أفريقيا ليس من بين الفصول المدققة على نحو عميق. ويستطيع الدارسون الذين يودون التعمق في مجال الدراسات الهيرودوتيه العودة إلى:

L. Bergson, "Herodot 1937-1960," Lustrum II (1966): 71-138; H. Verdin, "Herodote historien? Quelques Interpretations recentes," L'Antiqquite Clssique (1975): 668-685; and Arnaldo Momigliano, "The Place of Herodotus in the History of Historiography," Studies in Historiography (London: Weidenfeld and Nicolson, 1969),pp. 127-142.

[53] Geography II, 5.33. انظر بخصوص النص والترجمة الحديثة:

Strabo, Geography, trans. Horace Leonard Jones (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1917).

انظر بخصوص الدراسات الحديثة عن سترابون:

Katherine Clarke, Between Geography and History: Hellenistic Constructions of the Roman world (Oxford: Clarendon Press, 1999).

[54] انظر بخصوص النص والترجمة الحديثة:

Pliny, Natural History, trans. H. Rackham (Cambridge. Mass.: Harvard University Press, 1942).

وهناك تحليل مفيد حول بليني الأكبر في:

إغريقي صقلي عاش قبل سترابون بحوالي ثلاثين سنة، كرس حياته لكتابة تاريخ عام للجنس البشري من بداية الزمن إلى سنة 59 ق. م، و رأى التاريخ بوصفه كتلة معرفية يستطيع المرء استخلاص دروس قيمة منها، و مع ذلك كان يتأثر بسهولة بالحكايات الطويلة، فهو يؤكد على سبيل المثال بأن ليبيا كانت مأهولة بجنس الأمازونات في تاريخها القديم، وَ وُصف عمله بأنه "كنز وفوضى معاً". و يتهم ديودور الصقلي هيرودوت بأنه كان يخلط الأكاذيب بالحقائق، و بدوره كان بليني يهاجم ديودور كونه "الأول من بين الإغريق الذي ينحط إلى الخداع في الكتابة التاريخية".[55]

و تتألف المدرسة الثانية من كتاب العصر الروماني من سالوست، و تاكيتوس، وليفي، و بوليبيوس، و قيصر الدعي Pseudo-Caesarea (مؤلف مجلة حرب أفريقيا Bellum Africum)، و بروكوبيوس القيصري، و هم في الأغلب رجال أعمال رتبوا أحداث التاريخ الروماني في محيط أفريقي، كما كان جل اهتمامهم الحرب، حيث كتب بروكوبيوس، و قيصر الدعي (سيودو قيصر) عن المعارك التي اشتركوا فيها على نحو مباشر. و يظهر هؤلاء الكتاب عادة اهتماماً محدوداً بالأمور الثقافية، و الاجتماعية، أو الجغرافية إلا إذا كان لها صلة ما بالحملات العسكرية، و مع ذلك كثيراً ما تؤخذ معلومات مفيدة من هذه المصادر.

و تحتوي المدرسة الثالثة على كاتب واحد هو بطليموس الذي يوفر كمية هائلة من بيانات صعبة الفهم في الأغلب و مقدمة بطريقة معقدة في شكل أسماء، و مواقع الشعوب، و الأماكن، في أجزاء عديدة تتجاوز كل ما جمعه الكتاب القدماء الآخرين. و عاش بطليموس في الإسكندرية التي تعد مركز العالم الهلينستي التجاري و الفكري، و مكان أكبر مكتبة في العالم وملتقى آسية و أفريقيا و البحر الأبيض المتوسط، ومكان عدد كبير من خبراء السفر، و كان بطليموس عبقرياً لديه كم هائل من المعرفة التي نقلها عن الجغرافيين القدماء، و لكنه كان رياضياً في الأساس، و كان مهتماً بعمل الخرائط أكثر من التاريخ، و بعلم الإنسان الوصفي Ethnography، أو الثقافة، و كان هدفه إكمال خريطته التي يبدو أن الجزء الشرقي من أفريقيا فيها كان أفضل من الغربي. و تمتد دقة عمله إلى أسفل خط الاستواء، و تبدأ في التلاشي في جنوب المغرب. و أتهم بتكرار الأسماء و قلبها و بالمناوبة أحياناً بين صيغها الإغريقية و اللاتينية عندما لا يملك معلومات لتعبئة المساحات الفارغة.[56]

K. G. Sallman, "Die Geographie des aHeren Plinius in ihrem Verhaltniss zu Varro: Versuch einer Quellenanalyse" in Untersuchungen zur antiken Literatur und Geschichte, eds. H. Dorrie and P. Moraux II (Berlin, 1971), pp. 27-34.

وانظر بخصوص بليني وشمال أفريقيا:

B. D. Shaw, "The Elder Pliny's African Geography," Historia 30 (1981): 424-471.

[55] Donald R. Kelly, Vesions of History from Antiquety to Enlightment (New Haven: Yale University Press, 1991), pp. 48, 259.

قدم عمل ديودور تحت عنوان المكتبة التاريخية Bibliotheca Historica (يشار إليها بعدئذ .B.H). ويعد الفصل القديم إلى حد كبير أساطير أكثر منه تاريخ، وحينما تكون الأجزاء التاريخية مؤكدة فهي غالباً قصصية أكثر منها تحليلية. انظر بخصوص النص والترجمة الحديثة: Diodorus of Sicily, trans. C. H. Oldfather (Cambrridge, Mass.: Harvard University Press, 1935). ويظهر هجوم ديودور الساخر إلى حد ما على هيرودوت في 1.69.7. وهناك ملخص قصير للأعمال المتعلقة بأفريقيا لدى هيرودوت، وديودورس الصقلي، وسترابون، وبليني الأكبر، وبطليموس في:

Joseph E. Harris, Africa and Africans as Seen by Classical Writers: The William Leo Hansberry African History Notebook (Washington: Howard University Press, 1981), pp. 101-147.

[56] توجد معلومات محدودة عن السيرة الذاتية لحياة كلاوديوس بطليموس الذي عاش فيما بين 100–178 م تقريباً. قسم عمله العظيم المعروف عامة باسم "جغرافيا" إلى ثمانية كتب، خصص الرابع منها لأفريقيا. ويوجد النص الإغريقي للجغرافيا في شكلها الكامل في:

و الكتاب العرب– بعضهم عرب، و بعضهم الآخر فرس بالرغم من أن الأغلبية كانوا مغاربة و أندلسيين كتبوا باللغة العربية – يشبهون كثيراً المدرسة الهيرودوتية، إذ ليس لديهم شيء مثل صعود الإمبراطورية الرومانية و سقوطها ليؤرخوا له. و كان العلماء المسلمين مهتمين بأعمال القدماء العلمية و الفلسفية، و لكن ليس بتاريخهم و بجغرافيتهم الوصفية، و حدث انتقال محدود للمعلومات في المرحلة الانتقالية بين المدخلين الثاني و الثالث، و لم يكن سترابون على سبيل المثال، معروفاً لدى العرب.[57] و لكن إذا ما أراد العرب جمع بياناتهم فإنه كانت لديهم ميزة عظيمة: فقد توحد العالم الإسلامي عن طريق الدين، و الثقافة، و الصلات التجارية من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي موفراً مدخلا إلى المعلومات الجغرافية لم يحلم بها الإغريق و الرومان، و عرف العرب بطليموس بالرغم من أنهم لم يستفيدوا منه في مجال علم الإنسان الوصفي Ethnography و التاريخ، و لم ينتج أي كاتب عربي عملا مثل عمل بطليموس، و الأقرب لذلك هو البيروني الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي، و أضحى الجغرافي الأعظم في عصره بصفة عامة، و لسوء الحظ لم يكن هو و نظيره في كتابة التاريخ و الجغرافيا الوصفية المسعودي مهتمين كثيراً بالأجزاء الداخلية من شمال أفريقيا و بغربها، و كان الإدريسي وهو جغرافي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي شديد التأثر بمفاهيم استعارها من بطليموس. و لكن إذا كان كثير من عمل بطليموس ما يزال غامضاً بسبب العوز للدليل التعزيزي، فقد بقيت أدلة كثيرة جداً من زمن الإدريسي، جاعلة الشك يحوم حول أجزاء كثيرة جداً من عمله. و مع ذلك كان معاصروه متأثرون جداً بما أعدوه "طريقة الإدريسي العلمية" و فضلوه على البكري الأندلسي الذي كتب قبل الإدريسي بقرن من الزمان، و لا يوافق العلماء الحديثون على ذلك و يمدحون البكري بالإجماع تقريباً بوصفه الأفضل عند الحديث عن الدقة.[58]

و أثرى معرفتنا بالصحراء علماء عرب آخرون بارزون مثل ابن حوقل، و ياقوت، و ابن سعيد، و ابن أبي* زرع، و قد تبلورت أفكارهم التي يؤمنون بها في ابن خلدون الذي يعده بعض العلماء الأبرز في علم التاريخ في الفترة الواقعة بين ثيوسيديس**، و قامباتيستا فيكو***. و كان ابن خلدون الذي ولد في تونس سنة 1332 م عالماً متجولاً ورجل

Claudii Ptolemaei Geograpkia, ed. C.F.A. Nobbe, 3 vols. (Leipzig, 1843-1845; reprinted, Hildesheim, 1966).

وأفضل نص نقدي للكتاب الرابع هو :

C. Muller with C. T. Fischer, Claudii Ptolemae Geographia, 2 vols. (Paris, 1883-1901).

والطبعة الإنجليزية الوحيدة الكاملة هي:

The Geography of Claudius Ptolemy, ed. And trans. Edward Luther Stevenson (New York: The New York Public Library, 1932; reprinted 1991),.وكان محل نقد كبير. وهناك تعليقات مفيدة على عمل بطليموس في:

Raymond Mauny "Le Sahara chez Ptolemee," Bulletin de Liaison Saharien 6 (Oct. 1951): 18-23, and "L'Ouest African chez Ptolemee (vers +141 A.D.)," Actas da 2a Conferencia Internacional dos Africanistas Ocidentais reunida em Bissau em 1947 I (Lisbona, 1950): 241-293.

[57] Akhtar Hussain Siddiqi, "Muslim Geographic Thought and the influence of Greek Philosophy," GeoJournal 37.1 (1995): 13.

[58] توجد مختارات من أعمال البكري، والإدريسي، وابن خلدون وآخرين كثيرين في:

Corpus of Early Arab Sources for West African History [hereafter Corpus], eds. N. Levtzion and J.F.P. Hopkins (Cambridge: Cambridge University Press, 1981), and in Recueil des Sources Arabes Concernant l'Afrique Occidentale du VIIIe au XVIe Siecle, ed. and trans. Joseph M. Cuoq (Paris: Editions du Centre National de la Recherche Scientifique, 1975).

* كتبت Ali في الأصل. المترجم

** ثيوسيديس Thucydides؛ هو مؤرخ أثيني عاش فيما بين سنتي 460؟ و 400 ق.م. المترجم.

*** قامباتيستا فيكو Giambattista Vico هو فيلسوف سياسي إيطالي، وخطيب، ومؤرخ، وقانوني ولد في نابولي في 23-06-1668 وتوفي في 23-01-1744 م. ومن أشهر أعماله "العلم الجديد"، صدر سنة 1725 م. المترجم.

دولة يعمل بأجر، همه الوحيد أن يكون موظفاً حكومياً ناجحاً مثل كونفشيوس، و ميكيافيلي، وإن يكن الأعلى مرتبة، و قد أثبت مثل سابقيه أنه أفضل كثيراً عند التنظير عن السلطة من مزاولتها، و نقله طموحه من الأندلس إلى مصر، حيث عمل أثناء تنقله لدى سادة عديدين، و لكن يبدو أنه يقع دائماً في الجانب الخطأ من أنظمة الحكم الأسرية، و انتهى به حبه لمكائد البلاط في السجن، و أجبره هذا الحب على العيش منفياً عدة مرات، و هدده أحياناً بفقدان رأسه.

و نجد إن الخطوة الأولى في إعادة بناء تاريخ عرقي ،و مع قليل من المرحلات من المدخل الثاني إلى المدخل الثالث هي البحث عن التكامل بين المصادر داخل كل مدخل. و إن القول أسهل من الفعل عند تناول مجموعات خارج النطاق. و قد ذكر الكتاب التقليديون الكثير من التجمعات البشرية مرة واحدة فقط و حتى الذين ذكروهم عدة مرات غالباً ما وضعوا في أماكن مختلفة.[59] و بينما تعيش المجموعات البدوية حياة تجوال، فقد وجدنا أنفسنا في بعض الحالات نتساءل إن كانت هذه المجموعات البشرية هي نفسها أو آخرين مختلفين تبادلوا الأسماء فيما بينهم. و تحدث هذه المشكلة بين الكتاب العرب بقدر محدود جداً، و حينما تحدث فهي غالباً إشارة إلى أن مجموعات معينة غيرت فعلا مكان إقامتها.

و يشير التطابق بين المصادر غالباً إلى الاستعارة من مصدر آخر أو الانتحال منه، و تقرأ الروايات نفسها حرفياً أحياناً على نحو متكرر. و يعد هيرودوت مصدر المعارف كلها في وصفه لشعوب الصحراء الشرقية.[60] و صار استعمال هيرودوت بوصفه مرجع مضلل من قبل بعض الكتاب مثل كاتب الدليل النباتي المجهول Periplus المعروف باسم سكايلاكس الدعي Psudo-Scylax من أواسط القرن الرابع ق. م. ترك سكايلاكس الدعي وصفاً للشعوب السوداء المدعوة من قبل الإغريق الأثيوبيون الذين عاشوا في الإقليم الأطلسي جنوب أعمدة هرقل، و هي بقعة شاسعة فارغة خلال أغلب العصر القديم. و لحسرتاه أنتج سكايلاكس الدعي جغرافية زائفة عن طريق تناول بعض المعلومات النباتية المحدودة التي تحصل عليها من القرطاجيين، و هي ربما كانت معلومات مظللة ليبدأ بها، فدمجها مع المعلومات النمطية العامة المعروفة في الأدب الإغريقي، و وصف هيرودوت للإثيوبيين الذين عاشوا جنوب مصر. من الواضح أن سكايلاكس الدعي ظن أن الأثيوبيين كانوا الأثيوبيون و يمكن استغلال المعلومات حول هؤلاء الذين عاشوا في حوض وادي النيل على نحو مشجع لوصف آخرين عاشوا في الساحل المغربي، أو في أي مكان آخر بينهما.[61]

و لم يقتبس بعض الكتاب من بعضهم فحسب، بل كانوا يغيرون المعلومات أحياناً، و حينما ينكشف التلاعب يصبح النص كله موضع شك، فعلى سبيل المثال تعود نسخ جغرافية بطليموس الأقدم الباقية إلى القرن الثالث عشر، و تعود النسخة المطبوعة إلى سنة 1475م مفسحة المجال لأكثر من ألف سنة من التحريفات تتسرب إلى النص و هو ما قاموا به بالفعل. و قد وقع النساخ في أخطاء غير مقصودة، و لكن العلماء أدخلوا تغييرات متعمدة، مضمنين

---

[59] ينظر بخصوص الأمثلة:
Jehan Desanges, Catalogue de tribes africaines de l'antiquite classique a l'ouest du Nil (Dakar: University of Dakar, Faculte des letters et des sciences humaines, Publications de la SECTION D'HISTOIRE, No. 4, 1962), pp. 34, 62, 140, 225-227.

[60] ينظر بخصوص الاستعارة من هيرودوت: .Pliny, V.8.45

[61] Raoul Lonis, "Les Ethiopiens du Pseudo-Scylax: Mythe ou Realite Geographique?" in Le Sol, la parole et l'ecrit; 2000 ans d'histoire africaine; melanges en hommage a Raymond Mauny (Paris: Societe Français d'Histoire d'OutreMer, Library L'Harmattan, 1981), pp. 385-394.

إضافات معتقدين أنهم كانوا يطورون عمل بطليموس، و يوجد اليوم أكثر من خمسين مخطوطة باقية، بعضها في حالة تغير واضح لدرجة أن بعض العلماء الحديثين وجدوا أنه من المستحيل تقريباً إيجاد نسخة واحدة مقبولة الترجمة.[62] و لكن تضمحل المشاكل مع بطليموس في مقابل تلك المرتبطة بكاتب آخر من بداية المدخل الرابع، مع أن بعض الدارسين قد يرى ليو الأفريقي ممثلا لمرحلة الانتقال بين المدخلين الثالث و الرابع.

و يحتوي عمل ليو الأفريقي، و هو رجل قيل أنه كان شاهداً بعينه لما كتب عنه، على وفرة من الأغلاط الشنيعة المربكة. يقول في إحدى زلاته التي لا تنسى: أن نهر النيجر، يفترض أنه عبره إلى أفريقيا السودانية، يجري من الشرق إلى الغرب، و هو في الواقع يجري عكس ذلك تماماً. ما الذي جعل ليو يخطئ؟ كتب ليو كتابه باللغة العربية في البداية، ثم ترجمه إلى اللغة الإيطالية، و هي لغة لم يكن يتقنها و يحتمل أنه كانت لديه مشاكل في الكتابة بها. و عمل ليو في الفاتيكان تحت رعاية البابا حيث تلقى مساعدة دون شك من قبل جماعات كانت لها فرص كثيرة للوقوع في أخطاء الترجمة و الطباعة وفي عرض بياناته. و قد كُتب كتابه سنة 1526 م و لكنه لم يطبع إلا سنة 1550 م، و وصل خلال الفترة الفاصلة إلى يد شخص يدعى جين بابتيستي راموزيو Jean-Babtiste Ramusio الذي يحتمل أنه أعاد كتابته على نحو كامل، و لم يبق الكتاب الأصلي. و فيما بعد ترجم جون بوري John Pory الطبعة الإيطالية إلى الإنجليزية سنة 1600 م مقدماً فرصة أخرى للتغيير. و قد اختلط تماماً ما رآه ليو، و ما حدسه، و ما أخبر عنه، و ما الذي لم يقله أبداً، و لكن نسب إليه لدرجة يستحيل معها إعادة ترتيبه، و صارت درجة التلوث بذلك هي الوحيدة محل سؤال.[63]

و يستقي الكتاب معلوماتهم أحياناً من مصدر عام لم يعد معروفاً، و صارت مجموعات بشرية جزءًا من الأدب، تعشعش في كلمات الجغرافيين، و المؤرخين، و الشعراء بعد نهاية وجودهم بفترة طويلة، إن وجودوا حقاً في أي يوم من الأيام.[64] و سمحت ممارسة النسخ عن الأعمال القديمة لمصادر أصلية كثيرة تعد مفقودة حالياً بالبقاء على نحو مجزأ. و هكذا فإن الكثير مما تناوله البكري يأتي من محمد بن يوسف الوراق الذي عاش قبله بقرن كامل في القيروان التي تعد المركز التجاري لشمال أفريقيا و هي بالتالي مكان رائع لجمع المعلومات عن الصحراء، فقد استعار البكري حتى عنوان كتابه، كتاب المسالك و الممالك، من الوراق.

---

[62] J. Lennart Berggren and Alexander Jones, Ptolemy's Geography: An Annotated Translation of the Theoretical Chapters (Princeton: Princeton University Press, 2000), pp0 42-50.

[63] يتوفر عمل ليو الأفريقي باللغة الإنجليزية في طبعة مؤلفة من ثلاثة أجزاء تحمل العنوان:

The History and Description of Africa and of the Notable Things Therein Contained.

وبخصوص روايته عن نهر النيجر ينظر الجزء الأول ص. 124. وأحسن ترجمة حديثة قام بها:

A. Epaulard, Description de l'Afrique, 2 vols. (Paris Librairie d'Amerique et d'Orient, 1980).

وبخصوص فحص جيد للمشاكل التي وردت في رواية ليو ينظر:

Humphrey J. Fisher, "Leo Africanus and the Songhy Conquest of Hausaland," The International Journal of African Historical Studies XI, I (1978): 86-112.

[64] هناك مثال جيد على قوم ربما لم يكن لهم وجود بالمرة لكنهم وجدوا في الأدب، هم اللوتوفاجيون، أو "أكلي اللوتس،" الذين ظهروا لأول مرة في أوديسة هومر (IX.95;XXIII.311)، ويضمنهم هيرودوت في زيارته لشعوب شمال أفريقيا، وكذلك فعل بطليموس (IV.3;6;12) والكتاب المتأخرين.

و كان الإدريسي، وبدرجة أقل البكري مصدرين مفضلين من بين المصادر العربية، زود كلاهما ابن خلدون بكثير من معلوماته عن صنهاجة، رغم أن ما يتعلق بالبكري منه يبدو أنه جاء عن طريق غير مباشر من خلال نص يعود لبداية القرن الرابع عشر الميلادي ينسب لابن أبي زرع الذي ربما استغل فيه مادة البكري الأصلية.[65] و كان ابن خلدون الوحيد من بين الكتاب العرب الذي استعمل قليلا من المصادر غير الإسلامية، بما في ذلك نظرة عامة على تاريخ العالم منذ بداية العصر الروماني لكاتب مسيحي هو باولس أوروسيوس Paulus Orosius استقى هو الآخر من سالوست Sallust، و تاكيتوس Tacitus، وليفي Livy، و آخرين.[66]

و من الواضح أن بطليموس كان يعتمد على المصادر الثانوية أكثر من البدء بالأثر المنقول شفهياً و بالمادة الأصلية الأولية، و يعترف بأن كثيراً من معلوماته تأتي من مارينوس الصيداني Marinos of Tyre الذي عاش قبله بحوالي نصف قرن، و استعمل كلاهما مصادر قديمة غير معروفة الآن عدى ما يخص منها عالم يدعى إيراتوشثينس Eratosthenes الذي كان أمين مكتبة في الإسكندرية و كان أقدم منهما بعدة قرون. و بقي عمل مارينوس وإيراتوشثينس من خلال عمل بطليموس فقط .

أما سترابون فهو انتقائي في اقتباساته، مستعملا تلك المعلومات التي يعدها جديرة بالاحترام فحسب، مثل ما يخص منها سورياً يدعى بوسيدونيوس الأبامي Poseidonius of Apameia من القرن الثاني قبل الميلاد كتب اثنين و خمسين كتاباً عن التاريخ لم يبق شيء منها الآن.[67] و كتب ديودور الصقلي بالمثل عملا ضخماً، بقي أغلبه، و يبدو أنه اقتبس فيه من كل شخص – محترم و غير محترم – ولم يبال بمزج المعلومات من مصادر مختلفة، و لكنه استعملها على نحو متتابع، مفسحاً المجال لبقاء فقرات من نصوص مفقودة. و كان ديودور، كما وصفه أحد المراقبين المعاصرين آنذاك بأنه "خبير لديه مقص و غراء أعاد صياغة أعمال مؤرخين محترفين".[68]

و من السهل، في أغلب الأحيان، القول ما إذا كانت المعلومات أصلية أو مقتبسة، سواء وثق الكتاب مصادرهم أم لم يوثقوا حيث كان العرب يقومون بذلك في الأغلب أكثر من القدماء، و لكن ما زال هناك سؤال يطرح عن صحة مصدر المعلومات، و يبدو أن معلومات قليلة جاءت من مشاهدة مباشرة: سافر هيرودوت إلى قورينائية على الساحل الليبي، و صعد سترابون مع نهر النيل، و قام بليني، و ديودور الصقلي ببعض الاستطلاعات التطفلية بالرغم من أنها ليست في الصحراء. و زار اليعقوبي شمال أفريقيا، و غامر ابن حوقل حتى إلى أبعد من ذلك، و يبدو أن روايته تعني أنه عبر الصحراء رغم احتمالية عدم تجاوزه الواحة الشمالية "سجلماسة" في المغرب.[69] و عبر ابن بطوطة الصحراء جيئة و ذهاباً. و مكث البكري في أسبانيا حيث تحصل على معلوماته من خلال التحدث مع المسافرين و من خلال قراءة الكتب، و ذهب ابن خلدون إلى أكثر أجزاء شمال أفريقيا روعة. و ربما زار بطليموس مناطق مجهولة في الجزء الشرقي من القارة، و لكن من المستبعد أنه غامر داخل الصحراء.

---

[65] Hopkins and Levtzion in Corpus, pp. 234-318.
[66] Charles Issawi, "Ibn Khaldun on Ancient History: A Study in Sources, "in Charles Issawi, Cross-Cultural Encounters and Conflicts (New York: Oxford University Press), pp. 51-77.

[67] يذكر سترابون بعض من مصادره الرئيسة في مقدمته؛ انظر .Geography I.2.1
[68] Pardon E. Tillinghast, Approaches to History: Selections in the Phiosophy of history from the Greeks to Hegel (Englewood Cliffs: Prentice-Hall Inc., 1963), p. 8.
[69] N. Levtzion, "Ibn Hawqal, the Cheque and Awdaghost," Journal of African History 9 (1968): 223-233.

و كان الكتاب تحت رحمة مصادرهم، و في هذا يتفوق البكري على الإدريسي لأنه كان أكثر نقدية في استعمالها. و من المحتمل أن القصص التي جمعها ليو كانت ثرثرة أكثر منها معلومات، و إذا كان نصه يعود إليه فعلا فيبدو أنه كان لديه ولع استثنائي بالحصول على معلومات تعوزها الدقة في مرات كثيرة باستخدام نهج يخالف نهج البكري تماماً.

و يقف هيرودوت على نحو مغاير لديودورس الصقلي لأنه كان لديه القليل ليقص منه و يلصق فقد بدأت كتابة التاريخ به هو نفسه، و بناء على ذلك استندت روايته على المصادر الشفهية أكثر من أولئك الكتاب اللاحقين، و يسبق هيرودوت المفتري أحياناً نقاده الحديثين بإعطاء تحذيرات مثل "أعيد فقط ما يقوله الليبيون أنفسهم."[70] و هو يفترض بأن قراءه سيفرزون الغث من السمين بأنفسهم.

و من دون شك فإن الروايات العربية متفوقة على مثيلاتها الكلاسيكية في وصف شعوب الصحراء على نحو دقيق و ذلك راجع بقوة إلى حدث جلل ظهر في الفترة الفاصلة: و هو الشروع في الحركة التجارية عبر الصحراء الكبرى. فقد وجدت في العصر القديم حركة تجارية ما نحو الصحراء، و منها لعب فيها القرطاجيون الكتومون دوراً غامضاً في الجانب الشمالي، و لكنه كان نظاماً عشوائياً تمر فيه البضائع من واحة إلى أخرى و من قوم إلى آخرين إلى أن يستنفذوا بضائعهم أو يظهرون في الجانب الآخر في حالات نادرة، و فتح مجيء الإسلام طرقاً جديدة للتجارة عن طريق نظامه المتعلق بالقانون التجاري و اتصالاته العالمية الواسعة و استعمال البعير بوصفه حيوان نقل عبر الصحراء. و لا يوجد أحد من القدماء كان لديه مخبرون عبروا الصحراء فعلياً، و كان باستطاعة كل الكتاب العرب إيجاد مثل هؤلاء الناس لو رغبوا في ذلك فعلا.[71]

و إذا أمنت الصحراء الفرصة، فإنه كان لزاماً بالفعل على قلة من أصحاب المدخل الثالث أن يعاينوا على نحو مباشر ما كتبوا عنه، و يقف مصدر واحد فقط في طليعة المصادر المتاحة، فقد كان ابن بطوطة مغرماً بحب الترحال، و لو كان أوروبياً لكان ماركوبولو في الهامش اليوم، و في المجمل كان ابن بطوطة جوالا لمدة ثلاثين سنة تقريباً، عبر خلالها حدود عدد من البلدان الحديثة يصل عددها إلى خمسين بلداً تقريباً، و قدرت المسافة الكلية التي قطعها في تجواله إلى ما بين سبعين و ثمانين ألف ميل* و كان أغلبها في قارة آسية، و لكن أخذته رحلته الأخيرة من بلده الأصلي المغرب إلى إمبراطورية مالي ثم عاد عبر طريق غير مباشر منحه متسعاً من الوقت في الصحراء، لم يكن ابن بطوطة عالماً من طينة ابن خلدون أو البكري، و لكن كان رحالة استثنائياً و الأفضل في وصف ما شاهده. و أظهر قليلا من الاهتمام

---

[70] Histories IV.173, 187, 191.

[71] تحتوي المصادر القديمة على إشارات قليلة على عبور الصحراء وهي محل شك. يذكر أثينايوس الدينبوسوفستس Athenaeus's The Deipnosophists على نحو إرتجالي أن "ماقو القرطاجي عبر الصحراء ثلاث مرات، وكان يتغذى على اللحم المجفف وليس لديه أي شيء للشرب" (II.32). ويروي هيرودوت قصة عبور هي في الأغلب غير قابلة للتصديق (II.32)، تتحدث عن خمسة شباب من النسامونيين شرعوا في رحلة مغامرة عازمين فيها على كشف الصحراء، وأخيراً أسروا من قبل رجال سود صغار البنية نقلوهم عنوة إلى بلدة تقع بجانب نهر مليء بالتماسيح يجري من الغرب إلى الشرق، وقيل أن البلدة كانت تسكنها السحرة، وتمكن النسامونيون من الهرب والعودة إلى بيوتهم. ويقول بطليموس (I.8.4; I. 10–11). أن شخصاً يدعى جوليوس ماتيرنوس Julius Maternus من لبدة العظمى، رافق ملك الجرمنتيين في بعثة في اتجاه الجنوب استغرقت أربعة أشهر نحو أجيسيمبا Agisymba، وهي مكاناً يتجمع فيه الكركدن." وحيثما كان هذا المكان فإن رحلة جوليوس ليس لها نتائج ذات مدى بعيد.

* ما بين مائة وتسعة عشر ومائة وتسعة وعشرون ألف كيلومتر تقريباً. المترجم.

بالتاريخ، و لكنه كان شغوفاً بالعادات إن كانت غريبة حقاً أو عدوانية، و يبدو أن عبوسه نحوها كان أحد ملذاته الآثمة One of his guilty pleasures.[72]

وسافر ابن بطوطة في رحلته عبر الصحراء مع القوافل التجارية، و على الرغم من اشتمال التجارة عبر الصحراء على بضائع كثيرة فقد كان الذهب هو الجذاب، وحينما يصل تجار شمال أفريقيا إلى جانب الصحراء الجنوبي كانوا على الأرجح يمكثون في البلدات الساحلية مثل والاتا، وتمبكتو حيث كان تجار سودانيون من الوانقارا يتولون إحضار الذهب من مناطق تعدينه يطعمونهم غذاء ثابتاً من معلومات زائفة، و كان يقال إن المشتغلين بالتعدين كانوا من جميع الأصناف ابتداء من سكان كهوف مشوهين إلى نمل عملاق، يتخلون عن كنوزهم فقط من خلال عملية غامضة تدعى التجارة الصامتة، و يحل الكرب على المتطفلين، على الأقل وفقاً لجغرافي القرن الثاني عشر الميلادي الزهري al-Zuhri[73] الذي حذر من إصابة أي شخص ينظر إليهم بفقدان البصر في الحال.[74]

و يجب أن يعزى الشرف للوانقاريين بأحد أكثر حملات الخداع نجاحاً في التاريخ، و ما تزال أكاذيبهم تظهر في كتب التاريخ إلى القرن العشرين، و يجب أن نتساءل إن حدث هذا في السابق مع القرطاجيين في تأدية دور الوانقاريين والجواهر اللامعة المشهورين بها التي كانت تجلب من مكان ما مجهول في الصحراء، و هي العقيق الأحمر الغامض الذي كان يؤدي دور الذهب، و قد أبقى القرطاجيون على هذا الصمت الفعال حول صلاتهم التجارية تلك الصلات التي ما تزال مجهولة لنا حتى اليوم، و يبدو أن جزءًا من خطتهم كان تزويد الغرباء الفضوليين لاسيما الإغريق بجرعة مناسبة من الخرافات التي انتهى بعضها فيما يدعى "الأسرار الزائفة" في أعمال سكايلاكس الدعي[75]، و من المحتمل تسرب كميات أصغر إلى روايات موثوق بها أكثر ربما تتضمن ما كتبه هيرودوت.

و استعملت كل هذه المعلومات، الصحيحة و الزائفة، المجمعة من كل المصادر المتاحة اليوم ابتداء من هيرودوت إلى ابن خلدون في تصنيف شعوب شمال أفريقيا إلى مجموعات، و يعد تجميع الشعوب معاً تحت عناوين تميزهم عن شعوب أخرى تخطيطاً معتاداً في إطار محاولة فهم الماضي، و هناك نظام ملائم هو استعمال العرق طالما يبدو فعالا في العالم الحديث، و فعالا أيضاً في العالم القديم أحياناً[76]. و لا ينكر أحد بأنه كان هناك شعب معروف يمكننا تحديده بوضوح

---

[72] توجد أعمال ابن بطوطة الكاملة في:
Ibn Batuta: Travels in Asia and Africa 1325-1354, 3 vols., ed. And trans. H.A.R. Gib (London: Routledge and Kegan Paul, 1929; reprint 1983). وتوجد فقرات لها صلة برحلته إلى أفريقيا في:
Corpus, pp. 279-304, and Ibn Batuta in Black Africa, eds. And trans. Said Hamdun and Noel King (London: Rex Collins, 1975).

[73] هو محمد بن أبي بكر الزهري الغرناطي، وهو جغرافي أندلسي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي. المترجم.

[74] Corpus, p. 96. ينظر بخصوص وانقارا والتجارة الصامتة:
P.F. de Moraes Farias, "Silent Trade: Myth and Historical Evidence," History in Africa I (1974): 9-24.

[75] يوجد فحص للأسرار الزائفة البونية في:
Jerome Carcopino, Le Maroc Antique (Paris: Gallimard, 1943), p. 112.

[76] وتتضمن حالة مهمة عن إقحام العرق آثار العصر السابق على تدوين التاريخ مباشرة تطورت من دراسة الفن الصخري. لاحظ الأثريون والمؤرخون أسلوباً أسموه الـ "بقري / بقارة" "The "Bovidian بسبب تكرر مشاهد ماشية مستأنسة في الرسوم الجدارية من العصر المطير في الصحراء. وفي الحال وسع العلماء المصطلح "بقارة" ليشمل المجتمع الرعوي الذي حسبوا أنه يمثله وفي الحال صار يشمل الناس أنفسهم. وصار البقارة مجموعة عرقية متكاملة؛ وبخصوص وصف مجتمع البقارة ينظر:

مثل "المصريين" أو "الإغريق". و لسوء الحظ لا يبدو الأمر كذلك دائماً عندما يتحتم علينا النظر من خلال عيون المصريين أو الإغريق نحو الشعوب الأخرى.

و قد عرض بروكوبيوس، في تصنيف شعوب شمال أفريقيا، الفئات الأقل، ليبيين و مغاربة، صديق و عدو، و عمل مؤرخاً لبلاط الإمبراطور جستنيان في القرن السادس الميلادي و كتب تاريخاً سياسياً وعسكرياً، و لم يكتب في وصف الإنسان، فبينما يحتوي تقسيم بروكوبيوس على بعض الأسس المكانية فهو في الأساس تقسيم سياسي[77]. و على النقيض من ذلك نجد بطليموس و ابن خلدون اللذان يشيران إلى أعداد لا حصر لها من الأقوام، و يأتي أحد أشد أنظمة التصنيف غرابة من ابن حوقل الذي كتب في أواخر القرن العاشر الميلادي، و هو بغدادي تجول كثيراً في أقاليم الإسلام الغربية، حيث قاده فضوله ليجمع معلومات كثيرة عن الصحراء، و أعلن فجأة عند نقطة ما من كتاباته بأن قارئيه ربما يختلط عليهم الأمر بسبب كثرة العشائر و القبائل البربرية التي يذكرها و لذلك قسمهم، تيسيراً للفهم، إلى "صنهاجة الخلص" و "بنو تاناماك"، و يكمن الاختلاف في كون بني تانامك كانوا سودًا في الأصل ثم صارت جلودهم وتركيبتهم الجسمانية بيضاء بسبب إقامتهم القريبة من الشمال[78]. و رتب ابن حوقل قائمة تحتوي على تسعة عشر اسماً تحت صنهاجة الخلص و اثنان و عشرون تحت بني تاناماك دون الإشارة إلى أن هذا الترتيب ذو طبيعة سياسية، أو ثقافية، أو جغرافية، أو اجتماعية، أو لغوية، و لم يحدد الاختلاف بين صنهاجة و البربر الآخرين.

و يحاول ابن حوقل فرض نظام ما على مجتمع مجزأ بينما كان هناك كتاب آخرون مهتمون بكيانات أكبر الأمر الذي يغرينا على رؤيتها بوصفها تصنيفات عرقية Ethnicities، و من ناحية أخرى وجدنا أنفسنا في أغلب الوقت نتعامل مع تصنيف عام، و ألصق في حالات معينة، بقوم ما تصنيفات فرضت من الخارج. و صارت نوميديا على سبيل المثال لاعباً مهماً في النظام الحكومي الشمال أفريقي الذي يقاتل في الحروب البونية. و ناصر النوميديون – فيما بعد –

G. Cambus, "Beginning of Pastoralism and Cultivation in North-West Africa and the Sahara: Origins of the Berbers," in The Cambridge History of Africa, vol. I, ed. J. Desmond Clark (Cambridge: Cambridge University Press, 1982), pp. 570-680.

ولسوء الحظ لم يكن التاريخ مرتباً أبداً، إذ كلما توسعنا في معرفتنا عن الشعوب التي أنتجت الفن الصخري في الصحراء تصبح الصورة معقدة أكثر. ولم يكن البقارة، كما ثبت شعب واحد ولكن مجموعات عديدة من الواضح لا صلة بينها. كذلك لم يكن بوسع الوحدة الفنية الصمود في ظل وجود أساليب مختلفة متنوعة من مكان إلى آخر. وكان على العلماء الوصول إلى قرار يفيد بعدم إمكانية إعادة ترتيب ما قبل التاريخ في الصحراء من خلال الفن الصخري فحسب. وبخصوص الأعمال الأساسية في هذا الجدل ينظر:

Fabrizio Mori,, Tadrart Acacus: Arte supestre e culture del Sahara prehistorico (Turin: G. Einaudi, 1965); Alfred Muzzolini, "Le 'Bovidien' dans l'art rupestre saharien: un reexamen critique," L'Anthropologie 96 (1992): 737-758.

[77] Bellum Vandalicum (hereafter B. V) III.16.3,9; 17.6; 20.19 IV.10.5-24.

وبخصوص النص والترجمة الحديثة ينظر:

Procopius, History of the Wars, trans. H. B. Dewing (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1916).

[78] C0rpus, p. 50.

وبخصوص قوائم ابن حوقل ينظر:

Tadeusz Lewicki, "A Propos d'une liste de tribus berberes d'Ibn Hawqal, Folia Orientalia I (1959): 128-135, وأخرى حديثة في

"Du nouveau sur la liste des tribus berberes d'Ibn Hawqal," Folia Orientalia 13 (1971): 171-200.

يقول ابن حوقل: ".. وقد أعدت في غير موضع ما استكثرته من عدد أحياء البربر وقبائلهم الذين تجمعهم أخوة جالوت..وكأني ببعض المتصفحين لكتابي هذا يستثقل ذلك ولا ينزله منزلته..فهذه قبائل صنهاجة الخلص ..وأما بنو تانماك ملوك تادمكه والقبائل المنسوبة إليهم فيقال أن أصلهم سودان أبيضت أبشارهم وألوانهم لقربهم من الشمال وبعدهم عن أرض كوكو..ص.101.المترجم.

الجانب الخطأ في الحرب الأهلية بين بومبي و قيصر و انتهوا بوصفهم إقليماً في الإمبراطورية الرومانية، و جاء اسم النوميديين وفقاً لبليني و سترابون من الكلمة " بدوي Nomad".[79] و تظهر الأسماء أحياناً في حالة مشابهة تتعلق بطبقة اجتماعية أكثر منها عرقية. و كان للبربر منذ ظهورهم الأقدم في الصحراء بناء طبقي واضح، و يُعرف التوارق أنفسهم عادة على نحو طبقي أكثر منه قبلي، لا سيما إن كانوا من مرتبة النبلاء أو المحاربين. و ربما يعود قدم هذه العادة إلى زمن هيرودوت الذي ذكر الماكسيس [الأمازيغ] من بين قبائله الليبية، و هو اسم يظهر أنه يتعلق بجذر كلمة بربرية عامة تعني نبيل.[80]

و من الواضح أن الكتاب الكلاسيكيون و العرب أسموا الشعوب لأسباب مختلفة في أزمنة مختلفة، و لم يقصدوا بمثل هذه التسميات العمل لصالحنا وفقاً لفهمنا الحديث للعرق، و في أحوال كثيرة لم يقوموا بذلك. و كانت الصورة العرقية في الصحراء بالنسبة للقدماء فسيفساء لا تختلف عن أحجية الصور المتناثرة، و ليس لدى أولئك الذين كانوا يحاولون نظمها معاً أية فكرة عن ما يفترض أن تكون عليه، و كان هناك حل بسيط يتم فيه تقسيم الصحراويين إلى ثلاث مجموعات: الغايتاليين الذين كانوا بدو في الأغلب عاشوا في جهة الغرب، و الجرمنتيون الذين كانوا مستقرين في الأغلب و عاشوا في جهة الشرق، والأثيوبيون الذين تم تمييزهم بنمط الحياة، و الاقتصاد، أو حتى بالمكان أقل من تمييزهم ببشرتهم الداكنة إذ أن كلمة "أثيوبيين" مشتقة من اللغة الإغريقية و تعني شيء ما قريب من "شخص محروق الوجه".[81]

و كان الغايتوليون بالنسبة للرومان شعب كثير العدد عاش جنوب جبال الأطلس على حافة الصحراء، و يظهرون أحياناً في الروايات الكلاسيكية بوصفهم مرتزقة يقاتلون الرومان في حروب شمال أفريقيا، أو بوصفهم قبليين غاضبين يهاجمون على نحو و حشي المستقرين المسالمين الذين يقيمون تحت الحماية الرومانية حيث يندفعون من أوكارهم، و يرتكبون أعمالا مؤذية، و يقبض عليهم و يبادوا أو يهربون إلى عالمهم السفلي "الجحيم"، و أشير إليهم في مناسبات عديدة في سياق قبيلة، و اتحاد قبائل، و أمة، و مجموعة من جماعات مستقلة يشتركون في نظام حياة متشابه و هو الوصف الدقيق لهم في الأغلب، مفترضين بأنه كان هناك حقيقة ما تتعلق بوجود الغايتوليين. و إذا كان الغايتوليون ليس من اختلاق الرومان، من المؤكد أنهم كانوا ملائمين، و ربما كان اسمهم يشير إلى اتجاه و لا يعني شيئاً أكثر بساطة من أنهم "ساكني الأراضي الجنوبية" أو "الجنوبيون".

و إذا لم يشأ أغلب الكتاب المعاصرين الاقتناع بالتصنيف العرقي للكتاب القدماء، فإلى أي مدى يمكننا المواصلة؟ هل نحن سائرون نحو سراب في البحث عن تعريف للعرق يمكن تطبيقه على نحو عام على عالم ما قبل العصر الحديث بدرجة تمكننا من تصنيف شعوبه إلى فئات، و ليس فقط أولئك الذين عاشوا في دول و تركوا مدونات، و ما يجب أن تستند عليه هذه الأصناف؟ و يمكن أن تكون الأصناف الأكبر مثل "جنس" مظللة، كما في حالة الشعبين المبهمين

---

[79] N. H. V.2.22; Geography II.5.33.

[80] Histories IV.191. بخصوص صلة ماكسس بأمازيغ وإيمازيغن، ينظر:

Oric Bates, The Eastern Libyan: An Essay (London: Frank Cass & Co., 1970; reprint 0f 1914 edition), p. 77, and Desanges, Catalogue, p. 111.

وربما من المفيد إيراد ما يقوله هيرودوت عن قبيلة ماكسس من حيث الأصل الذي وفدوا منه والرقعة التي يشغلونها، يقول: يقطن غرب بحيرة شط الجريد "تريتون" وبعد المنطقة التي يقيم فيها الأوسس Auses قبائل يقيمون في منازل عادية، ويزاولون مهنة الزراعة أولهم الماكسس "الأمازيغ" وهم أناس يحتفظون بشعر رؤوسهم في الجانب الأيمن منه ويحلقونه في الجانب الأيسر، ويصبغون / يلطخون أجسادهم باللون الأحمر، ويدعون أنهم يتحدرون من أصل طروادي. المترجم. Herodotus, Histories, Ibid, p. 334.

جداً اللذين ذكرهما بطليموس، الليوكايثيوبيون Leukaethiopes و الميلانوغايتوليون Melanogaetulians و يعني الأول حرفياً "الأثيوبيون البيض"، أو "الرجال السود البيض" طالما يشير مصطلح "الأثيوبيون" إلى لون البشرة، و يحدد بطليموس مكانهم في دواخل المغرب الجنوبية، و هو لم يختلقهم فقد أشار إليهم بليني أيضاً الذي يضعهم جنوب الصحراء بين الغايتوليين الذين وفقاً لكل الروايات تقريباً كانوا بيض البشرة، و النيقريتيين Nigritae الذين يظن أنهم كانوا سود البشرة. و كان الجيران القريبين من الليوكايثيوبيين، طبقاً لبطليموس، هم الليبو مصريين، حرفياً "الليبيون المصريون"، و هذا تناقض آخر. و يصنف بطليموس الميلانوغايتوليون، "الغايتوليون السود"، بوصفهم أحد الأجناس الكبرى في ليبيا، و لكن لم يذكرهم بليني، و لا أي كاتب آخر لم يقتبس من بطليموس. و يفترض المؤرخون غالباً أن كلا الشعبين كانا من جنس مختلط مع أن اقتراح ما تم عرضه يربط الجنس بالثقافة: كان الليوكايثيوبيون بيض البشرة عاشوا ثقافة أثيوبية النمط في حين كان الميلانوغايتوليون سود البشرة عاشوا ثقافة غايتولية النمط.[82] و تفترض مثل هذه الفكرة وجود رابط بين الجنس والثقافة أقوي بكثير مما يمكن أن يكون كافياً لا سيما أن دواخل شمال أفريقيا كان بها اختلاط مفرط و تشابه ثقافات وشعوب لا تسمح بإظهار مثل هذه الاختلافات. و على كل يمكننا أن نستنتج من خلال الليوكايثيوبيون و الميلانوغايتوليون أن الخريطة العرقية كانت معقدة جداً و بالتالي فهي غامضة تماماً حتى بالنسبة لمراقب لديه مصادر بطليموس.

و هناك سؤال أكثر عمومية يتعلق بمصير الأثيوبيين الذين عاشوا في الجانب الشمالي من الصحراء، يذكر هيرودوت الأثيوبيين أولا بوصفهم سكان كهوف عاشوا قرب الجرمنتيين، كذلك يذكر سترابون، و بليني، وبطليموس، و سالوست، و آخرين مجموعات عديدة من الأثيوبيين و هم لا يشيرون إلى السودانيين نظراً لأن سترابون عبر عن اعتقاد يؤمن به على نحو عام بأن الجانب الآخر من أثيوبيا توجد به "صحراء دون مياه مستوطنة في نقاط معينة فقط في ناحيتي الشرق و الغرب."[83] و يذكر بطليموس القزولهكيين Xulihkeis و الأوخاليين Oukhalikkeis و الأقانجيين Aganginae على أنهم أثيوبيو الغرب الأبعد جنوباً، و يظهر من وصفه على نحو مؤكد أنهم ما يزالون في الجانب الشمالي من الصحراء.[84] و يذكر سترابون قولا متواتراً قديم يرد فيه "أن الأثيوبيين غزو ليبيا إلى غاية دايرس Dyris [جبال الأطلس] في حين احتل آخرون جزءًا كبيراً من ساحل البحر."[85] و ذكر أن القبائل الأثيوبية كانت من بين جيران نوميديا، و موريتانيا، و حتى قرطاج.

و حينما بدأ الكتاب العرب تدوين ملاحظاتهم بطريقة مقتضبة و مستعجلة، كان التبو (التيدا) هم المجموعة السوداء الوحيدة المنظمة التي تركت في الصحراء، و كانوا يعيشون في جبال تيبستي التي تشبه القلاع. فهل هاجر كل الأثيوبيين الآخرين جنوباً في الفترة الفاصلة؟ غالباً ما ينتقل الناس تحت الضغط، عبر امتدادات طويلة أحياناً، و لكن من المحتم أن يكون انتقال أعداد هائلة من الناس عبر الصحراء كلها في فترة زمنية قصيرة نسبياً هو انتقال موت أكثر منه هجرة، و تم تقُديم اقتراح يفيد بتبني البربر للبعير بوصفه آلة قتال متواصل و استعملوه لطرد الأثيوبيين من موطنهم الشمال أفريقي، و إذا كان الأمر كذلك، لماذا لم يتبن الأثيوبيون البعير أيضاً؟ ربما لأن فعاليته في القتال لا تقارن بفعالية الفرس

---

[82] Ptolemy, Geographia IV.6.6; Pliny, N.H. V.8.43. وينظر أيضاً Desanges, Catalogue, pp. 219-220, 223, and Stephane Gsell, Histoire ancienne de L'Afrique du Nord, 8 vols. (Paris: Hachette, 1914-1928), I, p. 299.
[83] Geography I.2.25.
[84] Geographia IV.6.6.
[85] Geography I.2.26.

الذي استمر وسيلة الركوب المفضلة في المعركة،[86] و هذا الطرح يتضمن افتراض نوع ما من حرب عنصرية قديمة مروعة تعصبت فيها القبائل البيضاء ضد القبائل السوداء و طردوهم أو قضوا عليهم، و لم يبق أي دليل يدعم مثل هذه الفرضية. و السيناريو الأكثر ترجيحاً هو الأبسط: و هو ذوبان القبائل الأثيوبية في القبائل البربرية، أو صاروا سكان واحات معروفين اليوم باسم الحراتين The Haratin، أو كلا الأمرين. و ربما كانت رواية ابن حوقل الغريبة عن بني تاماك الذين كانوا سود البشرة في الأصل ثم صاروا بيض البشرة محاكاة محرفة لحدث حقيقي، و هو انصهار قبائل كانت تعد أثيوبية قديماً في قبيلة صنهاجة.

و فيما يتعلق باللغة فهي في إطار تجاوز الجنس هي إحدى سمات التحديد في المفهوم الحديث للعرق و نادراً ما كان يذكرها الكتاب الكلاسيكيون أو العرب عدا ملاحظة أن المتحدث عنهم كانوا يتكلمون كلاماً غير مفهوم. و بدأ هذا بملاحظة هيرودوت الفظة حول سكان الكهوف الأثيوبيين: "تختلف اللغة التي يتحدثون بها كلية عن أية لغة أخرى، و تبدو مثل صوت الخفافيش،"[87] و نواصل مع شاعر القرن السادس الميلادي كوريبوس الذي يلاحظ، في إشارة إلى القبائل البربرية بأن "لغاتهم البربرية تصدح بتعابير همجية فيما يشبه نباح الكلاب."[88] و لا يميز الكتاب عادة اللغات غير المفهومة (البربرية) بعضها من بعض، و لم يحددوا على نحو قاطع أن اللغة كانت معياراً مهماً لتقسيم قبائل شمال أفريقيا، و لكن ربما علينا افتراض هذا، أما تاكيتوس، الذي يتبع مدرسة سالوست في دراسته لشمال أفريقيا و لكن دراسته عن القبائل الألمانية لا تضاهى في علم الإنسان الوصفي الكلاسيكي، فهو يشير فعلا إلى أهمية اللغة في استعراضه للشعوب القاطنة شمال الإمبراطورية الرومانية.[89] و الجدير بالذكر أن اللغة غالباً ما استخدمت بوصفها دليل على العرق في بعض مناطق أفريقيا بما في ذلك غرب أفريقيا الأدنى . و يميز ابن خلدون البربر عن العرب، و الشعوب الأخرى عن طريق لغتهم، و طبقاً له: العرب هم من أعطى البربر اسمهم، و يعني أصل الكلمة شيء ما يشبه كلاماً غير مفهوم: "تعني كلمة بربر في العربية، صياح[90] مختلط غير مفهوم، و منها يقول المرء عند حديثه عن الأسد إنه يتبربر حينما يصدر زئيراً مضطرباً.[91]

و كانت الصيحات [الأصوات] غير المفهومة هي اللهجات المحلية الكثيرة التي كان البربر مقسمين على أساسها، و وفقاً لإحصاء حديث تصل اللهجات إلى عدد مذهل وهو ألف ومائتي لهجة، رغم أن الوضع زمن ابن خلدون يمكن

[86] Brent D. Shaw, "The Camel in Roman North Africa and the Sahara: History, Biology, and Human Economy," Bulletin de L'Institut Fondamental d'Afrique Noire, ser. B 41.4 (1979): 663-721.
[87] Histories IV.183.

[88] إن أفضل طبعة حديثة لكوريبوس هي:

J. Diggle and F.R.D. Goodyear, Flavii Cresconii Corippi Iohannides seu de Bellis Libycis Lib.viii (Cambridge: Cambridge University Press, 1970).

وكتاب كوريبوس الثاني الذي يحتوي على تصنيف القبائل في نسق جغرافي يمكن وجوده في:

Vincent Zarini, Berberes ou Barbares? Recherches sur le livre second de la Johannide de Corippe (Nancy: ADRA, 1997), pp. 121-131.

[89] Germania XLIII.

[90] حبذا لو استعمل الكاتب لفظ أصوات فهي اللفظ المناسب. المترجم

[91] Histoire I:168.

ويقدم ابن خلدون، في مكان آخر، تفسيراً بديلا إن لم يكن مشابهاً، وطبقاً لهذا، هناك ملك يمني يدعى أفريقوس بن قيس بن سيفي عاش في زمن موسى كان كثيراً ما يهاجم شمال أفريقيا ويقتل بربراً كثيرين: "أعطاهم اسم البربر حينما سمع رطانتهم وسأل عن ما تعنيه تلك البربرة.

Ibn Khaldun, The Muqaddimah: An introduction to History, trans. Franz Rosenthal, ed. N.J. Dawood (Princeton: Princeton University Press, 1967), p. 14.

تخمينه فقط. وبينما تبين اللغات البربرية اختلافات داخلية قليلة نسبياً بالمقارنة مع الفروع الأخرى من العائلة الأسيوية الأفريقية، فإن خريطة لغوية مفصلة للمتكلمين باللسان البربري سيكون لها نمط حساء الخضار المسكوب.[92] و حاول العلماء في الماضي فهم ما يدعى "لغة لهجات" عن طريق تمييز مجموعتين من اللهجات أو ثلاث – الزناتية، و الصنهاجية، و أحياناً المصمودية (التي تربط بصنهاجة حينما لا تميز على نحو منفصل) – مستندين على التنوعات الصوتية، و الصرفية، و على المكان. و لم تكن زناتة، و صنهاجة، و مصمودة مصطلحات استعملت في كتابات القدماء، و لكنها تظهر فعلا، على نحو صريح عند الكتاب العرب الذين قاموا بالتمييز فيما بينها، و تركز وجود مصمودة في مرتفعات الأطلس و المناطق المحيطة في حين كانت زناتة (الذين يتكلمون الزناتية) أكثر شيوعاً في شمال و شرق بقية شمال أفريقيا، و كانت صنهاجة في الجنوب والغرب. وتعني كلمة صنهاجة أولئك الذين يتكلمون زيناقا / زناقة Zenaga / Znaga، و هي اللهجة الأكثر شيوعاً في الصحراء الغربية.

و لم يعمل نظام التصنيف الزناتي– صنهاجي أبداً على نحو جيد ـ كان سكان جبال القبائل [القبائلية] التي تحد البحر الأبيض المتوسط في الشرق الجزائري، على سبيل المثال، يتكلمون الصنهاجية ــ و كان المتكلمون بالزناتية والصنهاجية في الألف سنة الأخيرة على الأقل متناثرين شذر مذر Helter-skelter عبر شمال أفريقيا. و قام اللغويون حديثاً بنقد هذا الطرح اللهجوي الذي بالكاد ساعد المؤرخين على تصنيف المجموعات العرقية من ألف سنة مضت.[93] و يبدو فعلا أن اللغة، عند هذه النقطة، كانت أكثر أهمية في تحديد هوية المجموعة مما عرضه المراقبون، أو كان من المرجح نسبة ذلك لهم، و كان لدى العلماء المسلمين نظام تصنيف مفضل يستند إلى تعاليم العهد القديم التي تثبت مكان كل شخص في شجرة البشرية التي تعود إلى آدم [عليه السلام].

و حالما يتم تجاوز انقسام صنهاجة– زناتة الأساسي، يبدو أن اتحاد اللغة، و الجغرافيا، و النسب، لعب أدواراً مختلفة في تحديد هوية الجماعة، و كانت صنهاجة نفسها منقسمة إلى ثلاث "سلالات" طبقاً لابن خلدون، المجموعات المتآلفة الأولى من المغرب الشرقي، و عاشت الثالثة إلى الغرب و كانت من سكان الجبال، و الثانية هي صنهاجة الصحراء، أو الملثمون، و هو مصطلح شائع لدى الكتاب العرب منذ زمن الإدريسي، و يبدو أنهم اشتركوا مع سمييهم الشماليين ليس في الاسم فحسب و لكن ربما في تشابه اللهجة أيضاً.[94] و كان الملثمون بدورهم مقسمين أيضاً إلى مجموعات، تتضمن دائماً لمتونة، و مسوفة، و جدالة، و لمطة، و أحياناً تارقا، و وريكا Wurika، و آخرين.[95] و

---

[92] بخصوص خلفية أصل البربر واشتقاقاته، ينظر:

P. Behrens, "Wanderungsbewegungen und Sprache der fruken saharanishen Viehzuchter," Sparache und Geschichte in Afrika 6 (1984-85): 135-216.

يقصد الكاتب بتعبير "نمط حساء الخضار المراق" أن الخريطة اللغوية ستكون مؤلفة من مجموعات لغوية مختلفة متناثرة مثل حساء الخضار المسكوب المؤلف من خضار مختلفة النوع والحجم. would have the pattern of spilled vegetable soup.

والشكر موصول للدكتورة خديجة أبو عروش الأستاذة في قسم اللغة الإنجليزية بجامعة بنغازي وهي أمريكية الأصل على مساعدتي في فهم هذا التعبير. المترجم.

[93] Lionel Galand, Langue et Litterature Berberes: Vinget cinq ans d'etudes (Paris: Editions du Centre de la Recherche Scientifique, 1979), p. 19.

[94] كرس أغلب الجزء الثاني من عمل ابن خلدون حول تاريخ البربر لسلالات صنهاجة الثلاثة. انظر بصفة خاصة ص ص. 4-5، 64-65، 104-105، و 121-122.

[95] توجد تنوعات كثيرة، ويقسم الإدريسي، على سبيل المثال، لمطة عن صنهاجة ويضمن مسوفة مع لمطة، ولكنه يضع لمتونه، وجدالة، وآخرين كثيرين مع صنهاجة. وضمن الدمشقي في بداية القرن الرابع عشر الميلادي لمتونه، ومسوفة، وجدالة ولكن أيضاً التازاكاقت Tazakkaght الذين لم يذكرهم أي كاتب أخر، والكاكدام التي تناولها كتاب آخرين بوصفها مكان، وهي أرض لابسي اللثام شبه الأسطورية. ينظر Corpus, pp. 127-209.

يبدو أنهم كانوا يتمتعون عند بداية ظهورهم باتحاد أقوى مما آلت إليه الأمور فيما بعد. ويذكر اليعقوبي مملكة صنهاجة في قائمة بلدانه التي عددها، وعرض ابن حوقل[96] والبكري[97] لملك قوي عاش في القرن العاشر الميلادي يدعى تنبروتان بن أسفيشر (المعروف بـ تنياراتان بن ويسانا بن نزار)، ويضيف ابن أبي زرع بأنه كان "ملك صنهاجة الأول في الصحراء."[98] وقرر الصنهاجيون قتله بعد عهدين من حكمه بعد أن سئموا من النظام الملكي. واتفقوا سنة 1038 م، بعد مرور مائة وعشرين سنة، على قبول ملك جديد من لمتونة، ولكنه قتل في معركة بعد توليه بفترة وجيزة، وحل محله ملك من جدالة.[99] وقد لقب ابن حوقل تنبروتان "ملك صنهاجة كلها"[100]، ولكن يبدو أن هذا الترتيب الجديد تضمن تلك المجموعتين فقط فيما يظهر أنه أكثر من تحالف ولكن أقل من دولة، وربما تكون كلمة اتحاد أحسن وصف له، إن حدث ذلك فعلاً. ويعود أصل كل المعلومات عن المرحلة اللاحقة لفترة تنبروتان من مصدر وحيد هو ابن أبي زرع الذي عاش بعد أربعة قرون من ذلك.[101]

وزال أي إحساس بوحدة صنهاجة مع صعود إمبراطورية المرابطين وسقوطها فيما بين أواسط القرن الحادي عشر وأواسط القرن الثاني عشر الميلاديين. وأدى التنافس داخل الحركة المرابطية بين جدالة و لمتونة إلى حرب أهلية تأججت في معركة مروعة أبيدت فيها قوة لمتونة، ونالت جدالة المصير نفسه تقريباً، و لم تقم لصنهاجة أي قائمة أبداً، حتى في شكل تحالف عسكري، وكان النزاع الجائحي بين اتحادات صنهاجة وزناتة، الذين وصفوا بأنهم أعداء متأصلين، محدود بسلسلة من حروب توكيلية معقدة في القرن العاشر الميلادي. ودخلت القوتان العظيمتان في غرب البحر الأبيض المتوسط في ذلك الوقت وهما الإمبراطورية الفاطمية الأفريقية (تونس) والخلافة الأموية في قرطبة (إسبانيا) [الأندلس] دخلت في صراع من أجل السيطرة كان فيه المغرب مسرح الحرب الأساسي، فاستعمل الفاطميون مجموعة صنهاجة الكبيرة (ليس الصحراويون)، واستعمل الأمويون مجموعات زناتية في الأغلب، وكان هذا الصراع في الأصل أسري، وديني، وسياسي، واقتصادي، ولكن بالكاد عرقي، ولم يكن له تأثير دائم على مجموعات الصحراء. ومن ناحية ثانية فإن الغارات، وحتى الحروب بين مجموعات صنهاجة، لا سيما لمتونة وجدالة، هي موضوع مألوف، ويبدو أنها كانت في الأساس صراع بين مجموعات متنافسة على الموارد الاقتصادية مثل مناجم الملح، ومراعي المناطق المرتفعة، والواحات.[102]

وقد يساعد التحديد الهرمي للهوية على فك عقدة حاجتنا إلى أن نضيف بشكل أفضل من هذا الشكل الهرمي الواقع التاريخي للقرنين التاسع أو الرابع عشر الميلاديين بحيث ينظر إلى الفرد كونهبربرياً وصنهاجياً و لمتونياً أو مسوفياً. وكلما كانت شبكة العلاقات الاجتماعية السياسية في المجتمعات المتجزئة، أعمق كان الإحساس بالانتماء أقوى، وهو

---

96 ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص. 97. المترجم.

97 البكري: المسالك...، ص. 850. المترجم.

98 ابن خلدون: تاريخ، 6، ص. 372. لم أتمكن من الرجوع إلى ابن أبي زرع، واكتفيت بما نقله ابن خلدون عنه. المترجم.

99 ابن خلدون. م. س. ن، ص ص. 372-373. المترجم.

100 ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص. 97. المترجم.

101 In corpus see pp. 48-49 for Ibn Hawqal and pp. 236-237 for Ibn Abi Zar.

102 بخصوص النزاع الصنهاجي الزناتي ينظر:

Henri Terrasse, Histoire du Maroc, vol. I (Casablanca: Editions Atlantides, 1949).

وبخصوص الصراع الصنهاجي الداخلي ينظر:

H. T. Norris, Saharan Myth and Saga (Oxford: Oxford University Press, 1972), p. 78, and E. Ann McDougall, "The Sahara Reconsidered: Pastoralism Politics and Salt from the Ninth through the Twelfth Centuries," African Economic History 12 (1983): 276-277.

ما يفسر لماذا لم يوجد مفهوم أمة بربرية. واندمجت العائلات العريقة في جماعات سلالية اتحدت لتشكل عشائر قائمة على سلف عام مشترك، مع أن هذا كان في أحوال كثيرة نتيجة الارتباط الفكري أكثر منه ارتباط صلة قرابة.[103] وكان من السهل تغيير سلاسل الأنساب أو إن كان ضرورياً – اختلاق نسب عام واضح، وإذا أخذنا بالنموذج الأبسط فإنه يجب تجميع العشائر في قبائل ولكن إذا تجاوزنا الخط الفاصل بين العشيرة والقبيلة فإن ذلك يأخذنا في الواقع من تركيبات اجتماعية واضحة نسبياً إلى أشياء أخرى، وسيكون من المناسب لو استطعنا تطبيق قتل رحيم هادئ على كلمة "قبيلة" التي أفرط في استعمالها وأسيء إليها، حملت القبيلة بوصفها كلمة أكثر مما يجب، والأسوأ أنها غامضة بدرجة يصعب فهمها، واستخدمت خطأ لوصف اتحادات اجتماعية، وسياسية، وعرقية فعلية وتخيلية مختلفة كثيرة جداً ذلك أنها صارت لا تعني شيئًا. ولم يكن هناك حس حقيقي لدى الكتاب القدماء بالمجتمعات المتجزئة، ويسجل هيرودوت قائمة بما يسمى قبائل تبدأ عند حدود مصر وتتحرك غرباً إلى ما بعد خليج سرت ونحو الجنوب الغربي إلى جبال الهقار، مسجلا خصوصية كل منها، وسار اللاحقون على شاكلته بإخلاص مجمعين كل شخص كان يعيش فيما وراء حدود الدول في قبائل دون التساؤل أبداً عن ماذا كانت تعني القبيلة.

وقد خلد الكتاب العرب الفكرة العامة عن القبيلة، وقسم ابن أبي زرع صنهاجة إلى سبعين قبيلة، ولكنه لم يخبر قراءه أبداً لماذا هي قبائل أو حتى ما هو المعيار المستعمل في تمييز واحدة عن الأخرى؟ أما هيرودوت فيجعل – على الأقل – قبائله تأكل طعاماً مختلفاً وتمارس عادات مختلفة، مضمناً أشكالا متنوعة من سوء سلوك جنسي. ويمكننا تجنب القبائل عن طريق تجميع شعوب شمال أفريقيا الأصلية معاً تحت عنوان بارز "البربر" ونعلن أن هذا يؤلف عرقاً،[104] ولكن هذا مجرد تنصل من تحمل المسؤولية cop-out إذ من الواضح أنه كان يوجد شيء من الحقيقة بالنسبة للوحدات الاجتماعية السياسية التي نعرفها بوصفها قبائل، ونحن ربما ليس لدينا أية فكرة أخرى تفسر لنا أسباب تشكيل القبيلة أكثر مما فعل ابن أبي زرع أو هيرودوت، ولكن بما أنهما استخدما هذه الكلمة بوصفها الأساس الذي أقاموا عليه تصنيفهم للناس، فإننا عالقون بها، وتظل مصطلحات مثل القبيلة وحتى التصنيف العرقي باقية لأنها غامضة على نحو ملائم؛ وهي تيسر فهمنا في خضم ربكة الهوية الاجتماعية.

وعلى العكس من هيرودوت لاحظ ابن أبي زرع فعلا أن الذين يتحدث عنهم عاشوا في مجتمعات متجزئة،[105] ولكن كان النظام الذي فرضه هو والكتاب العرب الآخرون يتعلق بتسلسل النسب أكثر من تعلقه بدراسات علم الإنسان، وعرفت المجموعات بوصفها أحفاد قوم محددين، ولذلك كان الأصل الذي تحدر منه البربر على نحو دقيق موضوعاً نوقش كثيراً. وكانت البداية الأكثر رواجاً هي الأرض المقدسة، وكان الجد الأول من بين المرشحين هو جالوت (غولياه Goliah)، ويقال أن الفلسطينيين، يخلط بينهم وبين الكنعانيين عادة، بعد تمكن داود من قتل جالوت، تركوا أرضهم

---

[103] بخصوص المجتمعات المتجزئة والثقافة الأفريقية التقليدية، ينظر:

Die Volker Africas und ihre tradilionellen kulturen: Studien zur kulturkunde, ed. H. Baumann, 2 vols. (Wiesbaden: H. Baumann, 1975 and 1979).

[104] بخصوص مناقشات عامة حول البربر بوصفهم عرق ينظر:

Michael Brett and Elizabeth Fentress, The Berbers (Malden, Mass: Blackwell Publishers, 1997), pp. 4-6, and the introduction by Gabriel Campus in Encyclopedie Berbere (Aix-en-Provence: Edisud, 1984),

I, pp. 8-13. G. H. Bousquet, Les Berberes: Que Sais-je? (Paris: Presses Universitaires de France, 1967), pp. 7-12, وهو يفضل رؤيتهم بوصفهم مجموعة لغوية أكثر من "عرق أصلي."

[105] Corpus, p. 236.

الأم، وهاجروا إلى شمال أفريقيا حيث صاروا هم البربر، ولم يكن كل شخص رغب في المحافظة على البربر في العهد القديم Old Testament مقتنع بالصلة الجالوتية. وتتحدر إحدى الروايات الأكثر شيوعاً إلى أبناء نوح، حام وسام، الذين قيل أن الشيطان بذر الخلاف بينهما: "صار حام أسود بسبب لعن والده له، وهرب إلى المغرب ليتوارى خجلا... وخلف بربر بن كيسلوجيم [كاسلوهيم]، وهو أحد أحفاده، ذرية كثيرة في المغرب."[106]

ومن المفهوم أن كثيراً من البربر لا يريدون عودة شجرة عائلتهم إلى جالوت وحام، أو أي من شخصيات التوراة الأخرى الباطلة. وكثيراً ما حاول المسلمون في كل أنحاء العالم الإسلامي تأسيس صلات سلفية بموطن النبي [صلى الله عليه وسلم] في شبه الجزيرة العربية، ولم يكن البربر استثناء، وكانت النظرية الشائعة بينهم أنهم كانوا يمنيين فقدوا الصلة بوطنهم منذ زمن طويل، وأرخ ابن خلدون كل القصص التي أمكنه الحصول عليها المتعلقة بأصول البربر و ألغى كلا منها على التوالي، وميز قصة واحدة عرضت غزو ملك يمني قديم بوصفها "مثال على الروايات الواهية لدى المؤرخين."[107] و لم يتصنع كلمات تتعلق بنظرية شائعة أخرى هي: "الرأي الذي يظهرهم أطفال جالوت أو العمالقة، ويجعلهم يهاجرون من سوريا طوعاً أو كرهاً، وهو رأي واهي لدرجة يستحق تصنيفه بوصفه أسطورة"[108]. ولكن ابن خلدون أثبت فعاليته بوصفه ناقداً أكثر من فعاليته في تقديم بديل قابل للتطبيق. و هو الآخر، في النهاية، تتبع أصول البربر إلى سفر التكوين: "الحقيقة الفعلية الآن التي تبطل كل الفرضيات هي: البربر هم أبناء كنعان، بن حام بن نوح."[109] وجاء عبر هذا بر الذي كان له ولدان؛ برانس، و مدغيس الأبتر، وينحدر كل البربر من أحد الأخوين، وصنفوا إما برانس، أو بتر.[110]

وكان الصنهاجيون برانس، و الزناتيون بتر، وكان الملثمون هم الأعرق في شجرة البرانس، وينحدرون وفقاً للإدريسي من الجدين الأعلى: صنهاج ولمط اللذين عاشا في المغرب وكانا ابنين لأم تدعى تازاكات (تيزكي) [تصكي] "العرجاء". ولكن أنجب صنهاج ولمط ذرية من نوع مشاكس حاولت هزيمة البربر الآخرين، وأخيراً تم طردهم إلى الصحراء حيث صاروا بدوًا يعيشون في خيام ويتغذون على حليب الإبل ولحومها.[111]

ويخبرنا علم الأنساب المبني على الذكورة والذي فرضه العرب عن علم التاريخ العربي المعاصر أكثر مما له صلة بأجناس البربر وعاداتهم، وهذا لا يلغي أهمية النسب المدرك الذي كان مرتبطاً بالأم بين أغلب البربر لا سيما

---

[106] Ibn Khaldun, Histoire I, 177-178.

تظهر الصلة الحامية لدى اليعقوبي، .Corpus, p. 21 وتأتي الصلة الجالوتية متأخرة قليلا عند ابن حوقل، .Corpus, p. 48 وادعى المؤرخ اليهودي فلافيوس جوسيفوس Flavius Josephus قديماً، في القرن الأول الميلادي بأن الغيتوليين يتحدرون من حافيلاه Havilah ، ابن كوش، حفيد حام.

يقول ابن خلدون: "..وقال أيضاً أن حام لما أسود بدعوة أبيه عليه فر إلى المغرب حياء واتبعه بنوه.. وكان من ولده بربر بن كسلاجيم فنسل بنوه بالمغرب." 6، ص ص. 185-186. المترجم.

[107] Ibn Khaldun, Muqaddimah, p. 14.

ابن خلدون: المقدمة، ص ص. 16-17. ويقول في مكان آخر: "..وأعلم أن هذه الروايات كلها مرجوحة وبعيدة عن الصواب." م. س، 6، ص. 190. المترجم.

[108] لم يبين الكاتب الصفحة التي ذكر فيها ابن خلدون هذه المعلومة، وعند البحث اتضح أن الصفحة هي: 190، من المجلد السابق نفسه. يقول ابن خلدون: ".. وأما القول بأنهم من ولد جالوت أو العماليق، وأنهم نقلوا من ديار الشام وانتقلوا فقول ساقط، يكاد يكون من أحاديث خرافة.." المترجم.

[109] يقول ابن خلدون: "والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح". 6، ص. 191. المترجم.

[110] Histoire I, 173-185. Also see R. W. Bulliet, " Botr et Beranes. Hypotheses sur l'histoire des Berbes," Annales Economies, Societes, Civilisations 36 (1981): 104-116. ابن خلدون: م. س، ص ص. 176-178. المترجم.

[111] Corpus, p. 127.

الصحراويين منهم، ويبدو أن التحليل اللغوي يبين أن هذا التقليد متجذر في الماضي: فعلى سبيل المثال كلمتي الأخ والأخت في البربرية الأولى هما "ابن أمي" و "بنت أمي" على التوالي.[112] وكان يعتقد على نحو راسخ أن الجد الأعلى لصنهاجة و التوارق امرأة هي تين حينان Tin Hinan من كل الهقار Kel Ahggar المشهورة. ومهما كانت القصة الحقيقة وراء تكوين مجموعة مثل لمتونة، فقد جاء المقياس الكبير لهويتهم الشخصية من اعتقاد راسخ عام بأن جدهم الأعلى كان امرأة تسمى لمتونة، ولذلك هم أقارب عن "طريق الدم".

وهناك مظهر أخير من تاريخ النسب القائم على التوراة يستحق الذكر: وهو لم يبدأ مع العرب، إذ يعلن بروكوبيوس فجأة من خلال ما كتبه أنه من الضروري القول كيف جاء المغاربة إلى ليبيا. و يبدأ بروكوبيوس بغزو يشوع والعبرانيين لفلسطين و قيامهم بجلد كل شخص صادفهم، فهربت عدة قبائل كنعانية إلى مصر ولكنهم وجدوها مزدحمة فواصلوا سيرهم إلى ليبيا، و كان شعب أوتوتش ثونوس الذين يدعوهم بروكوبيوس "أطفال التراب" يعيشون هناك؛ و لم يقل بروكوبيوس ما إذا تقاتل الكنعانيون وأطفال التراب أو تزاوج بعضهم مع بعض، و لم يقل غير أن الكنعانيين صاروا مغاربة.[113] و لم يختلق بروكوبيوس العلاقة بين شعوب شمال أفريقيا والعهد القديم: وهو يعود بالنسبة للمسيحيين إلى القديسة هيبولايت Hippolyte في بداية القرن الثالث الميلادي، ولكن يمكن رؤية أصوله حتى أقدم من ذلك في أثر فلافيوس جوسيفوس، والأثر اليهودي.[114] ومن ناحية ثانية، تؤسس قصة بروكوبيوس فعلا صلة بين المدخلين الثاني والثالث، وهي واحدة من خيوط التواصل القليلة، حتى ولو أنها تتعلق بعلاقة حسية أكثر منها حقيقية و هذا يعيدنا إلى مشكلتنا الأصلية: لماذا يبدو أن هناك مثل هذا المستوى من الانقطاع؟

إن الانقطاع الكامل تقريباً في نظام التسمية بين العصرين الكلاسيكي والعربي يثير شيئًا من الاندهاش، و تأتي الأسماء التي نستعملها اليوم من المصادر المتاحة لنا، بعضها متأصل مع الناس أنفسهم، كما في حالة المغاربة، على الأقل طبقاً إلى سترابون،[115] و تأتي أخرى من الجيران، و بعضها وجد في المراجع الإغريقية، و الرومانية و كانت مجرد أصوات لأسماء مكتوبة بالحروف بطريقة غير متقنة.[116] ويحتمل اختلاط الأمر على الكتاب عند نقل الأسماء في أحوال كثيرة أكثر مما نظن. ويسجل بطليموس في رحلته لوسط الصحراء أن "البليميائيين Blemmyae" يشاع أنه لا رؤوس لهم، و تلتصق أفواههم وعيونهم بصدورهم.[117] و يصف سترابون و آخرون أناساً حقيقيين يشيرون إليهم على أنهم البليمائيون الذين كانوا بدواً يعيشون أسفل مصر. و تم استعارة بليميوا بليني من حديث هيرودوت عن ليبيا الغربية بعد المنطقة الفلاحية: حيث " توجد أفاعي هائلة هناك... و حمير ذات قرون، ومخلوقات لها رؤوس كلاب، و أخرى لا رؤوس لها عيونها في صدورها (ذلك ما يقوله الليبيون على الأقل)، و رجال متوحشون، و نساء متوحشات..."[118] و ما يزال هناك قصص أخرى ملفقة من قبل الإغريق و الرومان، و يقدم ديودور الصقلي بعض الأمثلة الفاضحة في زيارته للأقوام

---

[112] G. Marcy, "Les survivances jurdiques de la parante maternelle dans la coutume du Maroc Central," Actes du Congres del'institut des Hautes Etudes Marocaines (Rabat, 1937), p. 33.

[113] B.V.IV.10.12-24.

[114] Yves Moderan, "Mythe et histoire aux dermiers temps de l'Afrique antique: A propos d'un texte d'Ibn Khaldun," Review Historique CCCIII 2 (Avril-Juin 2001): 327-337.

[115] Geography XCIII.3.2. Later the transliteration became "MOORS". صارت الترجمة الحرفية فيما بعد "مغاربة"

[116] يشتكي بليني في فقرته الافتتاحية لدراسته عن ليبيا، "بأن أسماء أهلها وبلداتها غير قابلة للنطق بالمرة عدا من قبل أهلها أنفسهم،"

N.H. V.I. See Gustave Mercier, "La langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord," Journal Asiatique 105 (1924): 189-320.

[117] N.H. v.8.46.

[118] Geography VIII.7; 135; Histories IV.191.

التي تعيش جنوب مصر، و هم يتضمنون الأختيوفاجيون Ichthyophagi (آكلي السمك)، و الخيلونوفاجيون Chelonophagi (آكلي السلاحف)، والريزوفاجيون Rhizophagi (آكلي الجذور)، و الهايلوفاجيون Hylophagi (آكلي الخشب)، و السبيرماتوفاجيون Spermatophagi (آكلي البذور)، و الستنيثوفاجيون Stnithophagi (آكلي الطيور)، و الأكنكلوفاجيون Acnclophagi (آكلي الجراد)، و حشر السيميون (ذوي الأنوف المسطحة) لكي يبين أن خطته لا تستند كلية على الغذاء، و من المستبعد أن الناس نظروا إلى أنفسهم فعلا على أنهم هيلوفاجيين (آكلي الخشب)، أو سيميون (مسطحة أنوفهم).[119]

و من السهل اصطياد ديودورس، و بالتالي من المهم ملاحظة أن كتاباً آخرين تورطوا في الممارسة نفسها، و إن لم يكن على نحو منهجي صريح، و لدى بطليموس الأختيوفاجيون الخاصون به الذين يضع موطنهم في الساحل الأفريقي الغربي، و لديه السكينيتائيون أيضاً، و هم "رجال الخيام."[120] و يشير بليني إلى اللوقونبوريين Logonpori (حاملي الرماح)، و النيسيكاثيون Nisicathae ، و النيسيتائيون Nisitae، " و هما اسمان يعنيان "رجال بثلاثة" أو "بأربعة عيون" ـ ليس لأنهم كذلك فعلا، و لكن لأن لهم نظر حاد في استعمال السهام."[121] و جاء خطر عظيم إلى جناح الإمبراطورية الجنوبي في القرنين الثالث و الرابع الميلاديين من "شعب" معروف باسم الكوينكويجينتانيون Quinquegentanei، و هي كلمة بالكاد تكون بربرية، و هي تعني ببساطة "الأقوام الخمسة"، و من الواضح أنه تحالف، أو اتحاد.[122]

لم ير المصريون، و الإغريق، و الرومان، و العرب، و الأوروبيون شعوب الصحراء من خلال مداخل مختلفة فحسب و لكن من خلال نظرات مختلفة أيضاً. و يجب ألا يكون مدهشاً ذلك أنهم خصصوا أسماء مختلفة لما رأوه، و هذا لا يجعلنا نسلم بأن الناس الذين تمت معاينتهم احتفظوا بالأسماء نفسها مدركين في الوقت نفسه، طبيعة مؤسساتهم السياسية و الاجتماعية المتغيرة، و أشار التغير في المداخل إلى إزالة كل الأسماء القديمة تقريباً.[123] و هناك أعداد كثيرة من الأسماء لدى الكتاب القدماء لا معنى لها عملياً اليوم، و جاء ربطها بأناس آخرين جاءوا قبل أو بعد ليس مثبطا للهمة فحسب، و لكنه عقيم في حالات كثيرة، و كان للعلماء الحديثين في أحوال كثيرة أوقات محبطة للعزيمة مع ما يفترض أن يكون مهمة سهلة للغاية فيما يتعلق بتعريف الظواهر الطبيعية، و قد أُخبر بطليموس أو هيرودوت عن سلسلة جبلية، أو نهر، أو بحيرات، و جزر، و خلجان، و قمم، أو أودية. و من المحتمل أن أصل أغلب مثل هذه التقارير قائم على حقيقة، و لكن لم يكن لدى الرحالة سبب وجيه ليكونوا دقيقين في وصف ما رأوه و ليس لديهم المهارات أو أدوات وصف مكان وجودها، و بالتالي فإن تحديد مكان بحيرة تريتون، يفترض أنها تجمع مائي كبير تفصل ليبيا الشرقية عن الغربية، أو أنهار النيقرس، و القير، و القيرس، و النيجر التي تفيض كلها عبر أرض تفصل على نحو

---

[119] B.H. III.15.I; 21.I; 23.I; 24.I-2; 28.1-2; 29.I. وبخصوص الأسماء التي أعطاها الإغريق لليبيين بنظر:
Olivier Masson, "Grecs et Libyens en Cyrenaique," Antiquites africaines 10 (1976): 49-62.
[120] Geographia IV.8.2; IV.7.10.
[121] N.H. VI.35.194-195.
[122] Lionel Galand, "Les Quinquegentanei," Bulletin d'archeologie alggerienne IV (1970): 297-299.

[123] هناك أسماء مهمة تعود في أصلها إلى العالم الكلاسيكي بقيت إلى الوقت الحالي تتضمن أفريقيا، وليبيا، وإثيوبيا، والبربر (من الجذر نفسه مثل بربري، في الأصل من الإغريق، تشير إلى شعب لغته القومية لم تكن إغريقية). لم يشر الليبيون القدماء ولا الأثيوبيون إلى أنفسهم بهذه الأسماء ولم يقم البربر بذلك لقرون كثيرة. ولم يكن لديهم اسم واحد يرمز لهم بوصفهم شعب مستقل لأنهم لم ينظروا لأنفسهم على هذا النحو.

غامض شمال أفريقيا عن غربها التي أخذ منها نهر النيجر اسمه ثبت أنه يشكل تحد أكثر مما يجب.[124] و لكي تزداد الأمور تعقيداً فقد أعطيت المدن، و القبائل، و"الأراضي"، و أحياناً المظاهر الطبيعية مثل الجبال، و البحيرات، و الأنهار أسماء قابلة للتبادل، و صارت الأعراق ألقاباً و العكس بالعكس.

و يمكن أن يسبب ربط مجموعة معينة بإقليم جغرافي مشاكل لأن بعض المجموعات كانت بدوية، و في بعض الأحيان تقوم المجموعات المستقرة، أو أجزاء منها بالرحيل إلى أماكن جديدة. و لم يضع مختلف الكتاب الأشخاص أنفسهم في أماكن مختلفة فحسب بل في أوقات أخرى كان الكاتب نفسه يضع الأشخاص أنفسهم في أماكن مختلفة. و ذكر بليني الأوتوتيليين أو الأوتولاتيين Autoteles or Autolatae في أربع مواضع مختلفة، معطياً لهم ما يظهر أنها أربع أماكن مختلفة، و كانت كلها في المغرب الحديث. و يعطي بطليموس مكاناً خامساً، في المغرب مرة ثانية.[125] و كان لدى بطليموس مجموعات من الفاروسيين Pharousii في أماكن مختلفة وكانت مختلفة أيضاً عن الأماكن التي وردت لدى سترابون وبليني، و يعقد الأخير الوضع أكثر بالخلط بين الفاروسيين و البيروسيين Perosi.[126]

أحرزت المجموعات البدوية أثناء العصر العربي[127] [الإسلامي] بروزاً متزايداً في الصحراء نتيجة لتكيفهم مع رعي الإبل، و هم في حاجة إلى أقاليم شاسعة توفر لهم مرعى مناسب لها، و انتقل أناس آخرون إلى أماكن أخرى ليستفيدوا من فرص العمل المتوفرة في هذه الأماكن. و يلاحظ البكري أن أغلب سكان مدينة أودَغست Awdaghust (في الجنوب الموريتاني) كانوا زناتة، و آخرين من أفريقيا،[128] و تطلب وجودهم هناك رحلة كاملة عبر الصحراء من الشمال إلى الجنوب و من الشرق إلى الغرب، و لم يكن هذا استثنائياً. و عاشت هوارة طبقاً لابن خلدون حول برقة، و هي مدينة ميناء في قورينائية في زمن الغزو الإسلامي*، و لكن عبر بعضهم الصحراء فيما بعد و شرع في الاستقرار و صار جيران كوكو Kawkaw، و هم سونقاي قاو the Songhay of Gao في المنعطف الشرقي لنهر النيجر. وتعيش

---

[124] لا بد أن بحيرة تريتونس تشير إلى شط الجريد أو ربما لتلك المجموعة مع شط ميلرهير Melrhir وعدة شطوط صغيرة ممتدة بينها. وهي منخفضات ملحية تمتلئ بمياه الأمطار في الشتاء والربيع، وليست تماماً المظاهر الجغرافية العظيمة التي وصفها الكتاب القدماء. بخصوص البحث عن النيجر القديم، ينظر:
C. K. Meek, "The Niger and the Classics: The History of a Name," Journal of African History I (1960): 1-17.

[125] N. H. V.I.5; V.I.9; V.I.17; VI.36.201.
وقد وردوا لدى بطليموس في Geographia IV.6.6, بوصفهم "شعب صغير" يعيش أسفل الغايتوليون، ومن المفترض أنه يعني أنهم كانوا منفصلين عن الغايتوليين. وبليني من ناحية ثانية يدعوهم الأقوى من بين الغايتوليين.

[86] Ptolemy Geographia IV.6.6; Strabo Geography II.5.33; Pliny N.H. V.8.43, VI.35.195.

[127] التعبير المناسب هو العصر الإسلامي وليس العربي، لأن المسلمين حينما قدموا إلى شمال أفريقيا كانوا يتألفون من مختلف الأعراق، ولم يكن من بينهم عرب يدينون باليهودية، أو المسيحية، أو أي دين آخر. وأرجو الانتباه إلى ذلك في هذا الموضوع. المترجم.

[128] يقول البكري: "..وسكانها أهل أفريقية، وبرقجانة، ونفوسة، ولواتة، وزناتة، ونفزاوة، هؤلاء أكثرهم، وبها نبذ من سائر الأمصار.." ص. 489. المترجم.

* برقة مدينة داخلية لا تطل على البحر، تقع وسط الجبل الأخضر شرق بنغازي بحوالي مائة كلم، واسم الميناء بطوليمايس (طلميثة) يبعد عنها حوالي عشرين كلم، وهو شرق بنغازي بحوالي مائة كيلومتر. المترجم.

هوارة لدى الإدريسي في مدينة أغمات Aghmat في الغرب المغربي و في الوقت نفسه في زله[**] Zala في الشرق الليبي.[129] و تصل المسافات بين هذه الأمثلة إلى حوالي ألفين ميل.

و يبدو أن قبيلة لمطة، و هي أحد فروع صنهاجة الكبرى، كانت واحدة من الفروع الأقل استقراراً، إن كانت تقارير المراقبين دقيقة، و يقرر اليعقوبي (أواخر القرن التاسع الميلادي) أن لمطة كانت تعيش في الجانب الشرقي من الصحراء بين الهقار و جبال تيبستي، و يذكر ابن حوقل (أواخر القرن العاشر الميلادي) أن إقليم لمطة في الجانب الغربي من الصحراء، و كانوا لدى البكري (أواسط القرن الحادي عشر الميلادي) يكمنون لمهاجمة القوافل العابرة للصحراء عند نقطة التزود بالمياه في الشمال الغربي.[130] و يتناول كل من البكري و الإدريسي (أواسط القرن الثاني عشر الميلادي) نول لمطة Nul Lamta،[131] و هي بلدة تحت سيطرة لمطة يضعها الإدريسي على نهر السوس في الجنوب المغربي. و يوافق ياقوت (بداية القرن الثالث عشر الميلادي) على أنهم يقيمون في "أقصى الغرب". و من ناحية ثانية يضعهم ابن خلدون (أواخر القرن الرابع عشر الميلادي) بوصفهم خُمس قبائل صنهاجة الستة في خط يمتد من الغرب إلى الشرق عبر الصحراء الجنوبية، واضعاً إياهم شمال الانعطاف الشرقي لنهر النيجر تماماً و يؤكد هذا القول في مرجع ثان. و لكن في مرجع ثالث يعيدهم مرة أخرى إلى الشمال الغربي يجوبون المنطقة الواقعة بين السوس و جبال الأطلس.[132]

إن محاولة تفكيك المعلومات داخل مدخل واحد صعبة، و يدفع تأسيس صلات بين المجموعات عبر المداخل إلى الحد الفعلي بين التاريخ و التخمين، و علاوة على ذلك جرت محاولات، بعضها موثوق بها أكثر من أخرى، فقد توصل علماء قاموا بدراسة الكثير من البشر من العينة نفسها مستخدمين المصادر نفسها إلى نتائج مختلفة في كثير من الأحيان. و هناك محاولة حديثة متهورة لتتبع خريطة بطليموس حول أفريقيا، رابطة شعوب كثيرة وردت في الخريطة ليس فقط بالعصر العربي بل بشعوب حديثة مستندة بدرجة كبيرة على أسلوب: يبدو هذا الاسم مثل ذلك الاسم، و ما يزال الكاتب سيء الحظ يدفع ثمن ذلك.[133]

[**] إن كان الكاتب يقصد زويلة فهي في الجنوب الليبي، وإن كان يقصد زله فهي في وسط ليبيا في الجانب الشرقي من منخفض الجفرة. المترجم.

[129] Corpus, pp. 68, 128-129, 326-327.

[130] البكري: المسالك...، 2، يقول: "..وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق ويتخذونه مرصداً لعلمهم بإفضاء الطريق إليه وحاجة الناس إلى الماء فيه." ص. 847. المترجم.

[131] البكري: م. س، ص. 853. المترجم.

[132] Corpus, pp. 22, 46, 67, 127, 174, 327, 331, 337. Louis Vivien de Saint-Martin, Le Nord de L'Afrique dans L'antiquite grecque et romaine, etude historique et geographique (Paris: Imprimerie Imperiale, 1863), p. 415,

ويعتقد لويس فيفيين أنه وجد اللمطيون أو أسلافهم على الأقل في أناس يدعوهم بطليموس الكليماتايدس (IV.6.6، Klimatides قرب المكان الذي وضعهم فيه ابن حوقل والبكري.

[133] ويمكن وجود أكثر المحاولات الكاملة الموثوق بها لترتيب من صار من لدى:

Desanges, Catalogue, and Vivien de Saint-Martin, Le Nord.

وكانت المحاولة الحديثة عن طريق:

W.F.G. Laroix, Africa in Antiquity: A Linguistic and Toponymic Analysis of Ptolemy's Map of Africa.

ومعها دراسة لرحلة أوفر، وبونت، وهانو:

Ophir, Punt and Hanno (Saarbrucken: Verlag fur Enlwicklungspolitik, 1998),

وقد لاقت هذه الرحلة انتقاداً قاسياً كما في مراجعة نشرت في The Journal of African History. وتقرر المراجعة في الجزء المطلعة عليه أكثر من الموضوع الذي يتناول مصر وأفريقيا الشرقية أن الكتاب "محبط القراءة على نحو لا يصدق، مقدماً لمحة عرضية من تفهم جدير بالاعتبار مقرن بنقص حاد حتى في البحث التجريبي الذي يقود إلى فهم أساسي للغاية في مجال التصوير الزيتي التمثيلي، واللغة، والثقافة المصرية القديمة، أو لأسلوب البحث العلمي المنهجي المتبع من قبل العلماء في هذه المجالات." انظر:

و العلماء منقسمون إلى أولئك الذين يروا أن عدداً من العلاقات المباشرة تبدأ أحياناً في فترة ما قبل التاريخ و تتواصل عبر العصور الكلاسيكية، والعربية[134] و الحديثة، و أولئك الذين يرفضون وضع أية خطوط لا سيما بين شعوب العصرين الكلاسيكي و العربي و تتجاهل مجموعة وسطى قبائل و مجموعات متشابهة و لكنها ترى فعلا تواصلا في الأعراق، و بالتالي صار رعاة الماشية البوفيديين Bovidian في ما قبل التاريخ أثيوبيين صحراويين، ثم صاروا حاراتيين وتبو Haratin and Tebu. و صار أكويديو Equidians ما قبل التاريخ غايتوليون في الغرب، و جرمنتيون في الشرق و فيما بعد مغاربة، و توارق على التوالي.[135] و يجعل توسيع جريء لهذا الطرح بعض البوفيديين يهاجرون جنوباً مع زيادة جفاف الصحراء ليصبحوا بيولس Peuls اليوم الحديثين (فولبي أو فولاني Fulbe or Fulani)، و هي مجموعة عرقية كبيرة متفرقة عبر غرب أفريقيا اليوم.[136]

ويبدو أن التتابع العرقي في الصحراء الشرقية أوضح منه في الغرب فعلا، و هناك مجموعتان تستحقان الذكر على وجه الخصوص: الجرمنتيون الذين يمتدون عبر العصر الكلاسيكي، ولواته Laguatan التي توفر تواصلا بين العصرين الكلاسيكي و العربي [الإسلامي]. و تناول الجرمنتيين الذين كان هيرودوت أول من ذكرهم سترابون، وبليني، و كتاب آخرون خلال العهدين الروماني و البيزنطي؛ عاشوا في فزان حيث مارسوا الزراعة على طول وديان مروية على نحو جيد، و تشير الحفريات الحديثة إلى أن حضارتهم بدأت نحو خمسمائة سنة قبل هيرودوت.[137] و كان الجرمنتيون، نسبة لعاصمتهم جرمة، في وسط ما كان يوجد من التجارة الصحراوية و ربما كانوا مصدر العقيق الأحمر القرطاجي، و فيما بعد حاربوا الرومان ثم عقدوا سلاماً معهم، و يبين الدليل الأثري وصول الجرمنتيين إلى قمة مجدهم في القرن الأول الميلادي، و بدأ انحطاطهم في القرن الرابع أو الخامس الميلاديين، و ربما صاروا، في ذلك الوقت تقريباً، مرتبطين باتحاد اللقواتيين [لواته] بوصفهم حلفاء.

و ربما كان اتحاد اللقواتيين [لواته] (ووردت بصيغ أخرى: ليوثاي، ولوتا، ولواته Leuathae, Louta, and Lawata) هو مجموعة القبائل الأساسية نفسها التي يدعوها الرومان الأوستورياني، الذين شرعوا في مهاجمة الإمبراطورية سنة 363 م، و تضمنوا مجموعات من أقاليم قورينائية، و طرابلسية، و تونسية، و يمتد وجود بعضها مثل النسامونيين إلى زمن هيرودوت. و ربما كانت القبائل الصميمة في عملية هجرة بطيئة نحو الغرب بدأت بسبب تدهور الظروف البيئية و لكن لم يصل العلماء إلى إجماع حول هذا الأمر.[138] هل اندمج الجرمنتيون في الاتحاد اللقواتي [اللواتي] إلى

Jacke Phillips, "Rereading Ptolemy's Map," Journal of African History 40,no. 3 (1999): 478.
وتعد تعليقاتها مناسبة للصحراء ولأفريقيا الغربية أيضاً.

[134] الوسطى هي التسمية المناسبة هنا وبالتالي تكون الجملة: العصور الكلاسيكية والوسطى والحديثة. المترجم.

[135] Gabriel Camps, Les Civilisations Prehistoriques de L'Afrique du Nord et du Sahara (Paris: Doin, 1974), pp. 346-347. Also Encylopedie Berbere II, 176-78; III, 407-408.

[136] Amadou Hampate Ba and G. Dieterlan, "Les fresques d'epoque bovidienne du Tassili n'Ajjer et les traditions des Peul: Hypothese d'intepretation," Journal de la Saociete des Africanistes 36 (1966): 151-157.
ويرى با وديترلان Ba and Dieterlan تشابهاً وثيقاً بين الطقوس والشعائر المبينة في بعض من الرسوم الصخرية وتلك المتبعة فيما بين بيول الوقت الحالي غير المسلمين The non-Islamic Peul of modern times . وقد حييت أطروحتهما بوصفها متألقة ومضحكة في الوقت نفسه.

[137] C.M.Daniels, "Excavation and Fieldwork amongst the Garamantes," Libyan Studies 20 (1980): 45-61.

[138] D. J. Mattingly, "The Laguatan: A Libyan Tribal Confederation in the Late Roman Empire," Libyan Studies 14 (1983): 96-108. وبخصوص الجدل ضد الهجرة ينظر:

الشمال منهم، أو هل انتقلوا جنوباً نحو الصحراء الوسطى ليصبحوا الكل أهقار The Kel Ahggar، أو كليهما؟ و كانت قرامه أو جرمه Garama or Jarma بالنسبة للعرب [الإسلام] ما تزال تعد عاصمة فزان حينما وصلت أول الجيوش الإسلامية سنة 643 م، و لكن كانت أيام الجرمنتيين معدودة، و مع أن الكتاب العرب يشيرون إلى جرمه إلى غاية القرن الرابع عشر الميلادي فإنهم بالكاد يذكرون الجرمنتيين.[139] وحاربت لواته العرب ثم التحقوا بهم لنشر الإسلام. و هم كانوا زناته و القبائل المتفرعة عنها لا سيما هوارة الذين صاروا متفرقين عبر شمال أفريقيا.[140] و كان أحفادهم يسيطرون على شمال أفريقيا من الحدود المصرية إلى جبال الأطلس حتى الغزو الهلالي في القرن الحادي عشر الذي غير فعلا تركيبة الإقليم العرقية.

و إذا هاجر الاتحاد اللقواتي [اللواتي] فعلا نحو الغرب، فإن حرسه المتقدم لم يتجاوز حدود تونس الحالية، و لم يبرز اتحاد قبلي كبير في الغرب، و على الأقل لم يتحدث الرومان عن شيء من ذلك تم خلال العصر البيزنطي و إلى غاية العصر العربي [الإسلامي]. و ينحصر جزء من المشكلة في وجود ثغرة في المصادر بين بطليموس في القرن الثاني الميلادي و بروكوبيوس و كوريبوس في القرن السادس الميلادي، و المصدر الوحيد المهم هو أميانوس مارسيلينوس الذي يصفه أحد المؤرخين بأنه "ظهور مدهش" و عقلية مبدعة في التاريخ بعد قرون من القحط،[141] و لسوء الحظ هناك فصلان صغيران فقط يتعلقان بشؤون شمال أفريقيا من واحد و ثلاثين كتاباً من مجموعته الرائعة التي فقدت منها الثلاثة عشر الأولى. و كان الإقليم الذي أسماه الرومان موريتانيا تانجيتانيا Mauretania Tangitania (المغرب الحديث) في الركن الجنوبي الغربي الأقصى من الإمبراطورية أحد الأماكن الأولى الذي تخلت عنه روما حينما بدأت عملية التقلص، و امتدت الصحراء إلى ما بعدها من أرض مجهولة إلى أرض مجهولة تماماً؛ و لم يتلاش الغايتوليون أو يحولوا أنفسهم إلى أناس آخرين، بل اختفوا فقط. و لم يعط لا أميانوس مارسيلينوس و لا بروكوبيوس اللذان لم يقلقهما تفتت المغرب إلى وحدات صغيرة، و لا كوريبوس الذي قدم فعلا قائمة مفيدة لقبائل لم يأت أي منها مما بعد منطقة تونس الحديثة، موفراً الانتقال الضروري من المدخل الثاني إلى المدخل الثالث في الغرب.

و إذا لاقى العلماء بعض النجاح في تتبع شعوب الشرق، إن لم يكن حتى شعوب الغرب، فإن هذا لا يفسر لماذا يظهر الليبيون الأقدمون مختلفين كثيراً عن صنهاجة العرب. و تكمن السمة الأكثر وضوحاً لشعب ما في مظهره الخارجي خاصة تلك التي تتعلق باللباس حيث كان لها تأثير مخيب للآمال بسبب الفجوة بين المدخلين الثاني و الثالث. و كان المصريون القدماء، في المدخل الأول، كثيرا ما يصورون رجال القبائل الليبية مرتدين غطاء العورة أو حتى

Moderan, "Mythe," Revue Historique, 321-325.

[139] تحدث المسعودي، والمقدسي عن الجرمنتيين على نحو مختصر في القرن العاشر الميلادي؛ ينظر:
Corpus, pp. 31, 54, and 379.
رجعت لكتاب المقدسي "نزهة المشتاق..." ولم أفلح في وجود أي إشارة لديه عن الجرمنتيين. المترجم.

[140] يذكر البكري، والإدريسي، وابن أبي زرع أن اللواتيين والهواريين يعيشون في بلدات في المغرب، أو في الجزء الغربي من الصحراء (Corpus, pp. 68, 128, 246). وينظر ابن خلدون إلى لواته على أنها واحدة من القبائل الكبرى، ولكنه يسمي هوارة "بدو وجبناء" (Histoire I p. 231)، وطبقاً له كان المصراتيون، وهم فرع من هوارة، منهمكون في تجارة بين مصر، وأفريقيا، والسودان الغربي في الجانب الآخر من شمال أفريقيا من المغرب.

[141] أقتبس هارولد ماتنقلي Harold Mattingly في كتاب:
Michael Grant, The Ancient Historians (New York: Charles Scribner's Sons, 1970), p. 362.
وتوجد الفصول ذات الصلة عند أميانوس مارسيلينوس، Res Gesiae (يشار له لاحقاً .R.G) وهي:
XXVIII.6.4-13 and XXIX.5.2-56.

يتبخترون عراة؛ و كان جراب العضو الذكري شائعاً، و كانت الملابس تعني المنزلة، و كثيراً ما كان رجال المرتبة العليا يصورون في أردية مفتوحة، منزوعة الحزام مصنوعة من جلود الحيوانات المتوحشة. و كان كل الرجال من الناحية العملية لهم لحى قصيرة مستدقة الطرف أو لحى صغيرة مشذبة (عثانين).[142]

و يبدو أن كل الليبيين ، في الزمن الذي ظهر فيه الكتاب الكلاسيكيون، كانوا يرتدون شكلا ما من الملابس. و كانت إحدى السمات القليلة فعلا التي وجد هيرودوت الليبيين يشتركون فيها هي الملابس. و عاش الأدرماخيديون Adyrmachidae، و هي قبيلة ليبية تقطن على الحدود المصرية، مثل المصريين في كل شيء "عدا أنهم كانوا يلبسون أنواع الملابس نفسها التي كانت تلبس في كل مكان آخر في ليبيا". و حدد هيرودوت، في فقرة أخيرة "أن النساء الليبيات يرتدين جلود ماعز ذوات عذب منزوعة الشعر و مطلية بصبغ أحمر (الفوه) بوصفها ملابسهن الخارجية."[143] ولم يصف ملابس الرجال، و يذكر سترابون ملابس مصنوعة من جلود كان يستعملها جنود مشاة موريتانيين و فلاحين نوميديين للحماية ضد العقارب و الأفاعي، و هو يتفق مع هيرودوت في أن الليبيين متشابهون في اللباس بصفة عامة."[144]

كذلك علق هيرودوت و آخرون على تسريحات الشعر الأنيقة و الغريبة أحياناً المزينة بالريش و قشور بيض النعام مع حلق أجزاء من الشعر و ترك أجزاء أخرى تتدلى على نحو طليق، و كان الماكاي Macae يحلقون شعر رؤوسهم من الجوانب و يتركون شعر الوسط طويلا، و يحلق الماكسس (الأمازيغ) Maxyes الجانب الأيسر من رؤوسهم و يبقون على شعر الجانب الأيمن نامياً، و يترك الماخليس Machlyes شعرهم طويلا في الخلف، و يتركه الأوسيس Ausees طويلا في المقدمة.[145] و يلاحظ سترابون في تعليقاته على رجال موريتانيا "إنه نادراً ما يمكنك رؤيتهم يلمس بعضهم بعضاً أثناء السير خوفاً من تأثير ذلك السلبي على بقاء زينة شعرهم متماسكة."[146] و لا يوجد غطاء للرأس و الوجه، و لدى كوريبوس، في نهاية العصر الكلاسيكي، وصف حي للمحاربين في كامل لباس المعركة: "لم يتزين المغاربة بأردية ذات أكمام، و لم يحيطوا أنفسهم بأحزمة ملبسة بأزرار، و هو رداء فضفاض تلبسه فرقهم المتوحشة في المعركة... وغطاء خشن، يتدلى من بنيتهم الرفيعة، ينحدر من أكتافهم؛ و هو قطعة من قماش مثبتة بعقدة صلبة، تحيط برؤوسهم البشعة، و بواطن أقدامهم البرنزية مسندة بنعال مغربية خشنة." [147] و إذا حل الرداء الفضفاض محل جلود الحيوانات و جراب الذكر فإن غطاء الرأس هو الذي له شهرة خاصة، و كانت قطعة القماش تلف حول الرأس في شكل إطار، و

---

142 Bates, The Eastern Libyans,

ويظل هذا الكتاب مصدراً مهماً للغاية. وبخصوص وصفه للباس الليبي ينظر: ص ص. 129-118. وبخصوص مقارنة مهمة يراجع:

F. Lecorre, "Le vetement dans L'art rupestre nord-africain et saharien," Travaux Laboratoire d'Anthropologie et de Prehistoire de Mediterranee Occidentale 8 (1984): 1-56.

143 Histories IV.168; 189.

144 Geography XVII.3.7; 3.11.

وطبقاً لسترابون "يستعمل بعض البرابرة في هذا الجزء من العالم أيضاً جلود الأفاعي والسمك بوصفها أغطية وأغطية أسرة.

145 Histories IV.175; 180; 190,

الدويب: الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوت، ص ص. 120، 123، 129. المترجم.

146 Geography XVII.3.7,

الدويب: الكتاب السابع عشر (وصف ليبيا ومصر)، ص. 99. المترجم.

147 Zarini, Berberes,p. 124,

كوريبوس: ترجمة الجراري، محمد، ملحمة الحرب الليبية الرومانية، ص. 50. المترجم.

لكن لا تغطي الوجه أو الفم، و كانت هذه القطعة في وقت ما بين كوريبوس و اليعقوبي، تحول من عمودية إلى أفقية و اتخذت ليس للمعركة فحسب و لكن بوصفها لباساً يومياً.

و صار استعمال الحجاب أو اللثام من الرجال و ليس النساء شارة صنهاجة المميزة و تبقى كذلك اليوم بين التوارق، و لم يذكر الكتاب الإغريق و الرومان رجال الصحراء بوصفهم لابسي لثام، و تطرق اليعقوبي، من ناحية ثانية، و هو أول كاتب عربي يلقي نظرة على بربر الصحراء، إلى "قوم يقال لهم أنبياء صنهاجة ليس لهم مساكن دائمة، و معتادون على تغطية وجوههم بالعمائم."[148] و يقدم ابن حوقل تفسيرًا لذلك قائلا: "إنهم ينظرون إلى الفم بخجل مثله في ذلك مثل الأعضاء السرية، بسبب ما يصدر منه من مخرجات، بما أن ما ينبعث منه، حسب رأيهم، له رائحة أسوأ مما ينبعث من الأعضاء السرية."[149] و من الناحية الواقعية يرد اللثام لدى كل كاتب عربي لاحق تناول صنهاجة. و وفقاً للبكري، "لا ينزعون اللثام تحت أي ظرف من الظروف، و لا يميز الرجل قريبه أو صديقه إذا لم يكن متلثماً، و هكذا إذا قتل أحدهم في معركة و أزيح لثامه لا يستطيع أي شخص التعرف عليه إلى أن يعاد وضع اللثام عليه."[150]

و قد قُدمت عدة اقتراحات مهمة تفسر ظهور اللثام، يقول أحدها أن العرب كانوا يتلثمون في المعركة عادة، و صارت هذه العادة شائعة بين البربر، و المشكلة مع هذا التفسير هي أن أولئك البربر الذين كان لهم اتصال مباشر بالجيوش الإسلامية، و هم أهل المغرب، لم يتخذوا اللثام، و لكن اتخذه صنهاجيو الصحراء الغربية و الوسطى العميقة الذين كان لديهم اتصال محدود بهم، و هناك اقتراح آخر قائم على حالات قليلة في الفن المصري القديم يظهر أنها تبين زعماء ليبيين بلباس نسائي. و ربما احتوت الشعائر الدينية التي تبجل الأسلاف على عنصر التلذذ بارتداء لباس الجنس الآخر، و إذا كان اللثام يعد لباساً أنثوياً فإن استعماله من قبل الرجال يمكن رؤيته بوصفه بقاء لهذه الممارسة، ومن المستبعد جداً ترك المراقبين الكلاسيكيين مثل هذه العادة تمر دون تعليق، أولئك المراقبون الذين كان مجتمعهم أبوياً و لم يكونوا ضد تصوير رعاياهم إلى المدى الذي يظهرهم في شكل دخيل، و غريب، أو منحرفي السلوك، أم هل علينا الافتراض أن اللثام اختفى أثناء عصر المدخل الثاني الطويل فقط ليظهر ثانية مع صنهاجة؟

و يعتقد المراقبون الحديثون أن لباس اللثام خدم أغراضًا عملية مهمة بوصفه أداة حماية من رياح الصحراء و شمسها، و بوصفه آلية دفاعية ملائمة في مجتمع يتميز بقواعد سلوكية صارمة، و هذه تفسيرات معقولة، و لكن مازلنا نجهل لماذا ظهرت هذه الممارسة بين القرنين السادس و التاسع الميلاديين. و تتراوح التفسيرات التقليدية في مداها من المشكوك في

---

148 Corpus, p. 22.

اليعقوبي: كتاب البلدان، ص. 360. المترجم.

149 Corpus, p. 49.

ابن حوقل: صورة الأرض، ص. 99. المترجم.

وثبت أن هذا التفسير متكرر جداً، فهو يظهر بعد ذلك بخمسمائة سنة في تقرير لربان إيطالي اسمه كا دا موستو , Ca Da Mosto تولى الكشف عن المناطق الساحلية من الصحراء للبرتغاليين. ويلاحظ بعد وصف الـ "غطاء flap": "لأنهم يقولون إن الفم شيء بهيمي، ذلك أنه يصدر دائماً نفسًا وروائح كريهة ولذلك يجب أن يغطى، ولا يكشف مثله في ذلك مثل الكفل (العجيزة) تقريباً."

يقول ابن حوقل: "...ويزعمون أن الفم سوءة تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه إذ ما يخرج منه عندهم أنتن مما يخرج من العورة." ص. 99. المترجم.

The Voyages of Cadamosto and Other Documents on Western Africa in the Second Half of the Fifteenth Century, ed. And trans. G.R. Crone (Nendeln, Liechtenstein: Kraus Reprint Ltd., 1967), p. 19

150 Corpus, pp. 75-76,

البكري: المسالك...، م. س، ص. 865. المترجم.

صحة نسبها إلى السذاجة، و استعمل بعض العرب و المغاربة الذين كانت العداوة بينهم و بين التوارق متأصلة لبس اللثام أداة سخرية بهم، و طبقاً لرواية ما كان سلف لابسي اللثام، شيطان تزوج امرأة أنجب منها أطفالا بشعون لجؤوا إلى تغطية وجوههم. وتدعي قصة شائعة بين نساء التوارق بأن النساء كن يلبسن اللثام و ليس الرجال، و حينما خسر الرجال معركة كبيرة رمى النسوة عليهم نقابهن و أبلغوهم بموارة وجوههم خجلا، و هناك قصة ملفقة أكثر إيجابية تدور أحداثها حول القتال من أجل نشر الإسلام في اليمن منذ بداياته، و بعد الهزيمة أمام المشركين هرب بعضهم إلى شمال أفريقيا منقبين بوصفهم نساء. و مهما كان أصل اللثام، فإنه من النادر أن نصل إلى حقيقة لماذا تلثموا به؟ و قد أعطي أنطوين مالافانتي Antoine Malafante، و هو تاجر إيطالي وصل سنة 1447 م إلى إقليم واحة توات [الجزائر] في وسط الصحراء، التفسير الأسهل و الأكثر مباشرة: "ورثنا هذه العادة عن أسلافنا."[151] هكذا دون سؤال. و ما يزال لماذا و كيف نال اللثام مثل هذا الانتشار الواسع في فترة قصيرة جداً من الزمن أحد أسرار التاريخ حتى و لو كان من المستبعد أن تكون موضوعاً لمسلسلات تلفزيونية".[152]

و كانت صورة الصنهاجي الصحراوي في لثامه تزداد جمالا بدرجة كبيرة إذا كان ممتطياً ذروة بعيره؛ و تتماشى صورة الإبل و اللثام بعضها مع بعض في المصادر العربية، و وفقاً لهيرودوت كانت أقوام ليبيا الشرقية بدو في الأغلب يعيشون على اللحم و اللبن، و كان الأطلنطيون الذين يعيشون جنوباً في عمق الصحراء "لا يأكلون أي شيء حي أبداً،"[153] و من المرجح أنه إشارة إلى رعاة استند طعامهم على منتجات لبنية، و لم يذكر هيرودوت الإبل. و يقرر بوليبيوس Polybius الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد أنه كان يوجد في أفريقيا "عدد هائل جداً من الخيول، و الثيران، و الغنم، و الماعز ما يجعلني أشك في وجود عدد مماثل له في بقية العالم كله، و من المؤكد أنها حجة واهية، مستمدة من صمت المصادر an argumentum ex silent ، ضد الاستخدام الواسع الانتشار للإبل"[154] و تأتي أول إشارة إلى الإبل من مؤلف حرب أفريقيا Bellum Africum الذي يصرح بأن يوليوس قيصر استولى على اثنين و عشرين حيواناً سنة 46 ق. م في عمليات حدثت قبل معركة ثابسوس Thapsus.[155] و افترض علماء حديثون في فترة ما أن الإبل من ذوات السنام الواحد استأنست في بلاد العرب ثم جلبت فيما بعد إلى شمال أفريقيا أثناء العصر الروماني، و تبين حديثاً، من ناحية ثانية، أن الإبل العربية (ذوات السنام الواحد) البرية كانت حيوانات محلية (موجودة أصلا) في شمال أفريقيا و من المرجح أنها استأنست هناك، و إن يكن متأخرًا عن بلاد العرب، ربما في الألف الثاني قبل الميلاد.[156]

---

[151] توجد "رسالة أنتوين مالافانتي " في:

Crone, Voyages of Cadamosto, p. 87.

[152] بخصوص أخذ عينات من تفاسير اللثام، ينظر:

Boubou Hama, Recherche sur l'histoire des Touaregs Sahariens et Soudanais (Paris: Presence Africaine, 1967), p. 125; J. Nicolaisen, The Ecology and Culture of the Pastoral of Tuareg (Copenhagen: The National Museum, 1963), pp. 14, 34; Lotd Cabot Briggs, Tribes of the Sahara (Cambridge: Harvard University Press, 1967), pp. 129-130; Norris, Saharan Myth, pp. 39, 41, 68-69.

[153] Histories, IV.191.

حدث خطأ طباعي وهو بدل وضع رقم المصدر بعد جملة "لا يأكلون أي شيء حي أبداً" وضع الرقم بعد رأي الكاتب الذي ينتهي بجملة ...طعامهم على منتجات لبنية، وتم التصحيح. هيرودوت: ترجمة الدويب، محمد، م. س، ص. 126. المترجم.

[154] Histories XII.3.

تكرر الخطأ الطباعي مرة أخرى إذ مكان رقم المصدر بعد كلام بوليبوس، وليس بعد جملة:..ضد الاستعمال الواسع للإبل. المترجم.

[155] CXVIII.

[156] Shaw. "Camel," 685-688.

و يبدو أن المراقبين الكلاسيكيين لم ينتبهوا إلى وجود البعير حتى زمن قيصر، لأنهم لم يفهموا أبداً أنها كانت مصدراً من مصادر الغذاء، و يتعرض كل من بوليبيوس وسترابون للبدو من دون ذكر للإبل.[157] و يدرك سالوست في وصفه للحياة في الصحراء أن "هذه الندرة في المياه، هنا و في كل دواخل شمال أفريقيا غير المتحضرة نسبياً صارت أكثر قابلية للتحمل عن طريق تعود النوميديون على الحياة أساساً على اللبن و لحوم الحيوانات البرية،"[158] و لكن مرة ثانية لا ذكر للإبل. و يتناول أميانوس مارسيلينوس فعلا الإبل في سياق مهم. و حاول كونت رومانوس Count Romanus و هو موظف روماني شرير سنة 370 م (بإخفاق) اغتصاب أربعة آلاف جمل من مدينة لبده العظمى و كان ذلك يعد عدداً مرتفعاً بدرجة لا يصدقها عقل.[159] و فيما بعد يصف بروكوبيوس وكوريبوس نطاقات دفاعية أقامها المغاربة الذين شكلوا إبلهم على نحو جانبي واضعين إياها في دوائر مؤلفة من اثنى عشر بعيراً لتعيق تقدم الفرسان و المشاة.[160]

و صارت أهمية الإبل لدى الكتاب العرب رمزية exponentially؛ و وفقاً للبكري يستطيع ملك صنهاجة تين يروتان ابن ويسنو ابن نزار إنزال مائة ألف هجان في أرض المعركة وأنزل ذات مرة خمسين ألف هجان دعماً لأحد حلفائه.[161] و الأكثر أهمية أن الإبل صارت مصدراً لغذاء البدو الصحراويين و ذلك من خلال ملاحظة اليعقوبي أن صنهاجة "تعتمد في غذائها على الإبل، لأنه لا محاصيل لديهم مثل القمح أو أي نوع آخر."[162] و يواصل ابن حوقل، و البكري، و الإدريسي ترديد ما عبر عنه اليعقوبي، ملاحظين جميعاً اعتماد صنهاجة على الإبل، بلغة شبيهة بلغة ابن أبي زرع "هم أناس لا يعرفون الحرث، و البذر، أو الإنتاج؛ تتألف ممتلكاتهم من الإبل فقط، و يعيشون على اللحم و اللبن، و ربما تنقضي حياة المرء دون أن يأكل خبزاً."[163]

و بشكل تقليدي ميز العلماء، في الجدال الدائر حول الإبل في شمال أفريقيا، فترتين: قبل الإبل ومنذ ظهورها، و كانت نقطة النقاش المهمة تتعلق بالزمن الفعلي الذي جلبت فيه الإبل من آسيا، و هي حقيقة تاريخية لا يبدو الآن أنها حدثت، و بما أن الإبل ظهرت في المصادر في حدود الزمن الذي شرع فيه الرومان في السيطرة على شمال أفريقيا، و بالتالي فإن وجودها لم يكن مشكلة في العصر الكلاسيكي فما بالك بالعصر العربي و لكن تظهر نظرة ثاقبة أن هناك ثلاثة عصور: لم تُذكر الإبل بالمرة في العصر الأول على الرغم من احتمالية أن عملية الاستئناس كانت قيد الإنجاز، و كانت الإبل في العصر الثاني تذكر من حين إلى آخر، و لكن في سياق الحرب بوصفها حيوانات نقل و استحكامات حية، و تبدو من أدلة أخرى (ألواح عليها نحت نافر) أنها استعملت في الحرث (لجر المحاريث)، و يجسد العصر الثالث ما تناولته المصادر الكلاسيكية و العربية حينما برز الصنهاجيون بوصفهم أبالة فعلا يشربون ألبانها و يأكلون لحومها حسبما ورد في كل الروايات الرئيسة. و حدثت اقتباسات كثيرة، على سبيل المثال فقرة ابن أبي زرع و هي صياغة

---

[157] For Strabo, see Geography XVII.3.7; for Polybius, see Histories XII.3.
[158] Bellum Jugurthinim (hereafter B.J.) X.90.2. وبخصوص ترجمة مناسبة، ينظر:
Sallust, The Jugurthine War, trans. S.A. Handford (Baltimore: Penguin Books, 1963).
[159] R.G. XXVIII.6.6.
[160] Zarini, p. 123. أدى استعمال المغاربة للإبل في هذا النسق دورا جيداً في محاربة الوندال ولكن ليس ضد البيزنطيين. ينظر:
B.V. III.8.25-28; IV.11.17.-19, 50-54.
[161] Corpus, p. 69.

البكري: م. س، ص. 850. المترجم.

[162] Corpus, p. 22.

اليعقوبي: م. س، ص. 360. المترجم.

[163] Corpus, p. 236.

البكري: م. س، ص. 857؛ ابن حوقل: م. س، ص. 98. المترجم.

جديدة لنص البكري، و لكن حتى إذا أصبح الصنهاجيون و إبلهم نماذج متكررة، تجدر الملاحظة أن المصادر رأت ضرورة احتوائها على هذه المعلومات.

إن التفسير الأكثر وضوحاً للتاريخ القديم الذي ذكر فيه أن الإبل كانت جزءًا من سلسلة الغذاء البشري في شمال أفريقيا هو أيضاً الأقل ترجيحاً، و السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل تم استئناس الإبل أولا من أجل العمل و أخيراً فقط من أجل الغذاء؟ و هذا سيجعلهم فريدين في هذا الجزء من العالم، فقد كانت كل الحيوانات التي انتهى بها المطاف لجر أو لحمل شيء ما مستأنسة في الأصل من أجل الغذاء عدا الحمار الذي لم يستعمل في الظروف العادية للغذاء. و هناك إمكانية أخرى تقلب المعادلة رأساً على عقب، و هي ربما عاش عدد قليل من الناس في الصحراء إلى أن استعملوا الإبل بوصفها حيوانات غذاء، و مرة ثانية لماذا حدث هذا في الفترة الممتدة بين بروكوبيوس و اليعقوبي؟ جاء البربر في موجات إلى الصحراء، و ربما كان اجتياح الموجة الأخيرة في الألف الأول الميلادي. أيمكن إحضار الإبل مع هؤلاء القادمين الجدد؟ نعم ، عدا أن هذا سيضع الإبل المستأنسة في الجزء الأفضل رياً في شمال أفريقيا قبل جلبها إلى تلك الأجزاء التي كانت ملائمة لها إلى حد بعيد، ألا يمكن ببساطة أن هيرودوت و الكلاسيكيين اللاحقين له كانوا يعتمدون على معلومات متفاوتة المصداقية ذلك أنهم لا يعرفون أن الناس في الصحراء كانوا عادة يرعون الإبل و يحلبونها، و يأكلون لحومها. و من الواضح أن الإبل حيوانات صحراوية و فعالة بوصفها منتجة للغذاء فقط في المناطق الأكثر هامشية التي لا يتوفر فيها غذاء كاف للماعز، و الغنم، و البقر، و كان لدى الجغرافيين العرب معلومات أفضل عن الحياة في عمق الصحراء لأنه كان لهم اتصال بالناس الذين كانوا هناك و هذا لم يكن متاحاً للقدماء، و مرة أخرى يصبح الأمر يتعلق بمصادر المعلومات بدلا من الممتلكات.

و إذا كان اللثام والإبل تعكر الانتقال بين المدخلين الثاني و الثالث، هناك سمة أخرى تبين الاستمرارية فعلا، فقد وجد المراقبون من الخارج أن السلوك الجنسي و المسائل الخاصة بنوع الجنس هي من بين المظاهر التي وجدها المراقبون الأجانب الأكثر غرابة، و من الواضح أن هيرودوت كان كذلك لا سيما إذا تضمن المشهد شيئاً ما غريباً، و يقول في تناوله للنسامونيين أن أية امرأة متاحة للجنس مع أي رجل، حينما يتم الزفاف فإنه "من عادة العروس ممارسة الجنس في ليلة زفافها مع كل الضيوف واحدًا بعد الآخر"[164] و يقول أن النساء في قبيلة الجنداتيس Gindanes "تعلقن [تضعن] خلخال لكل رجل مارس معه الجنس، وتعد المرأة الأكثر خلاخيلا هي الأكثر تميزاً لأنه أحبها العدد الأكبر من الرجال".[165] و كانت النساء المحاربات على الدرجة نفسها من الأهمية تقريباً، فقد كانت نساء الزويس Zauece تقدن عربات أزواجهن في المعارك، و كانت قبيلة الأوسيز Ausees تقيم مهرجاناً في كل سنة تقسم فيه النساء الصغيرات غير المتزوجات [الفتيات] إلى مجموعتين تتقاتلان بالعصي والحجارة في شجار عام يؤدي إلى وفاة المشاركات أحياناً، و لا تعني قسوة نساء الأوسيز أنهن غير مباليات بالجنس، و كن في الواقع متحررات جنسياً و لا يكترثن بالحياة الزوجية. و كان الرجال يجتمعون جميعاً حينما يبلغ الطفل ثلاثة شهور من عمره، "و يعد الطفل ابن أو بنت أي من الرجال الذي يشبهه."[166]

---

[164] هيرودوت: ترجمة الدويب، محمد، ص ص. 118-119؛ خشيم، علي: نصوص ليبية، ص.49. المترجم

[165] هيرودوت: م. س، ص. 120؛ خشيم: م. س، ص ص. 51-52. المترجم.

[166] Histories IV.172; 176; 180; 193,

هيرودوت: م. س، ص. 123؛ خشيم: م. س، 55. المترجم.

و لم يقصد هيرودوت مضايقة الليبيين، هو فقط لم يستطع مقاومة ترديد قصة بذيئة يسمعها، و غالباً ما يحتوي وصفه لشعوب أوروبا الشمالية، و الهند، و أي مكان آخر على مادة فاسقة و فاضحة على حد سواء، و يحتمل أن بعضًا من معلوماته على الأقل مستمدة من نوع المصدر نفسه الذي يزود رسائل إلى منتديات سيئة السمعة في العالم المعاصر Penthouse Forum. و لم يتوسع الكتاب الكلاسيكيون اللاحقون في التفاصيل المثيرة للانتباه، و لكنهم اتفقوا مع وجهة نظر هيرودوت و يلاحظ بليني بأن "الجرمنتيين لم يمارسوا عادة الزواج، ولكنهم يعيشون مع نسائهم على نحو مشاع."[167] أما سترابون فهو أكثر حذراً ملاحظاً فقط أن الرجال الليبيين لهم "زوجات كثيرات وأطفال كثر."[168] و يخلط بطليموس، في عمله حول التنجيم، الليبيون مع المصريين، و الأفارقة الآخرين، و العرب و يختم حديثه بالقول ".. و يتم زواجهم عن طريق الخطف الجنسي العنيف،" و "النساء بين بعض من هذه الشعوب مشاعة لكل الرجال."[169] و يؤكد بروكوبيوس على أن المغاربة كان لديهم تعدد زوجات، و لم يكن أمراً غير مألوف امتلاك الرجال الأقوياء خمسين زوجة، و لكنه يذكر أيضاً بأن القادة كانوا يستشيرون الكاهنات حينما يراد اتخاذ قرارات مهمة: "لأنه ليس قانونياً لرجل في هذه الأمة التفوه بالتنبؤات، ولكن تصبح النساء ممسوسات وتتنبأ بالمستقبل نتيجة لبعض الشعائر المقدسة، ويذكر أيضاً قصة حاكم يدعى سيرجيوس Sergius كان مكروهاً من قبل الليبيين "لأنه أظهر نفسه مغرماً بالزوجات و بامتلاك الآخرين على نحو غريب."[170]

هل جعلت المسيحية ليبيي بروكوبيوس يتخلون عن عاداتهم الجنسية غير المبالية؟ و توقع الكتاب العرب مع اعتناق الصحراويين للدين الإسلامي ستر عورتهم. و كان ابن حوقل متأثراً بنفوذ تنبروتان بن أسفيشار Tinbarutan b. Usfayshar، "ملك صنهاجة كلها،" و لكن لا بد أنه رأى أنه أمر غريب أن تكون أخت الملك أغنى شخص في القبيلة، و حينما احتاج هذا الملك المساعدة لهزيمة أعدائه كان عليه التوجه إلى رعاة قطعان أخته.[171] و يتحدث ابن سعيد عن لابسي اللثام من البربر الذين كانوا مسلمين، "و أيضاً يجعلون ابن الأخت يرث طبقاً لعادة كانوا يتبعونها منذ ما قبل الإسلام."[172]

و كان الانحراف الجنسي في مجتمع مضطرب يتخفى تحت السطح، و يذكر الإدريسي أن المرأة العانس في المركز الصنهاجي كاكدام Kakdam حينما يصل عمرها الأربعين "تقدم نفسها إلى أي رجل يشتهيها، و لا تصد أي شخص و لا تمنعه."[173] و كان ابن بطوطة مشمئز من الحرية و المرتبة العالية التي تتمتع بها نساء مسوفة اللواتي يختم قوله بأنهن "لا حياء لديهن،" و يعطي وصف لحادثتين منفصلتين في مدينة الساحليين والاتا [إيوالاتن] Walata،

---

[167] N.H. V.8.45,

خشيم: م. س، ص. 116. المترجم.

[168] Geography XVII.3.19,

سترابون: الكتاب السابع عشر...، ترجمة الدويب، محمد، ص. 113. يقول سترابون: "..ولهم زوجات متعددة وأطفال كثيرين، وفيما عدا ذلك فهم يشبهون البدو الرعاة العرب". المترجم.

[169] Ptolemy, Tetrabiblos, II.3.70.
[170] B.V. IV.11.13; 8.13; 22.2.
[171] Corpus, p. 48.

ابن حوقل: م. س، ص. 97. المترجم.

[172] Corpus, p.193.

ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل المغربي، ص. 115. المترجم.

[173] Corpus, p. 128.

حيث استراح بعد عبور الصحراء، و هناك وجد رجالا و نساء ليسوا أزواجاً منهمكين في جلسات خاصة، و عنف في المناسبة الثانية زوج المرأة الذي أبلغه "إن علاقة النساء بالرجال مقبولة لدينا و هي جزء من السلوك السوي الذي لا تشوبه أية شائبة، و هن ليس مثل النساء في بلدك."[174] و لم يكن بوسع ابن بطوطة الغاضب إلا التعليق بأنه "كان مندهشاً من انحلاله،" و وبخ الرجل بعد ذلك، و لاحظ أيضاً أن الناس في والاتا و فيما بين البربر الذين يعيشون حول تاكيدا Takedda، أكثر من ألف ميل [1609.35 كم] شرقاً، كانوا يسكنون مع عشيرة الأم. و يعلق على ذلك بطريقة جافة (وربما سخرية)، "النساء أكثر أهمية من الرجال."[175]

و كان ينظر إلى النساء، من هيرودوت إلى ابن بطوطة، من خلال العيون، ليس عيون الخارجيين فقط و لكن عيون الرجال دائماً، و بذلك يبعد المراقب عن الموضوع مرتين، و كان هؤلاء الرجال يمثلون مجتمعات كانت من دون شك ذكرية و تميل إلى الإنقاص من قيمة النساء، و من الواضح أن الروايات تعكس إشارة ما إلى سلطة ممنوحة للأنثى. و كان ما حث على سخرية هيرودوت Herodotus's snidery، و على اشمئزاز الإدريسي، و غضب ابن بطوطة هو مجتمع تمتعت فيه النساء بمرتبة عالية، ونفوذ، وتأثير أكثر مما لديهم، و كانت صورة تنطوي على تهديد. و لا يقتضي ضمناً أن مجتمع مختلط هو مجتمع متسم بنفوذ أنثوي، و لكن تهمة الاختلاط هي الطريق الأسهل لتشويه سمعة النفوذ الأنثوي. و في هذا المعنى فإن عدد الأحداث المذكورة المتواصلة فعلا لا صلة لها بالموضوع إلى مدى كبير. و تستمر التقارير من خلال المدخل الرابع مع التركيز على الإباحية لفسح المجال تدريجياً لرسم صورة أكثر توازناً و دقة عن العلاقات بين الجنسين. و تتعجب الروايات كلها تقريباً عن التوارق التي تعود إلى القرنين الأخيرين من الوضع الرفيع الذي تتمتع به النساء لديهم.[176] و من ناحية ثانية كان هناك اختلاف مذهل واضح، فقد كان البربر المتأخرون أحاديي الزواج مخلصين في مواجهة تعدد الزوجات العربي بينما يشير الدليل من المصادر المصرية و الكلاسيكية أن البربر القدماء كانوا يفضلون تعدد الزوجات في مواجهة الزواج الأحادي الإغريقي و الروماني. و مع أن البربر أصبحوا متجزئين جداً ـ شماليين و جنوبيين، كاشفي الوجوه و ملثمين ـ إلى درجة صاروا لا يفهم بعضهم لهجات بعض، و وصلوا جميعاً إلى تفضيل زوجة واحدة.

و يؤكد الانتقال من تعدد الزوجات إلى الزواج الأحادي مرة ثانية التغييرات الكثيرة المجهولة التي تظهر فجأة على نحو عشوائي في السجل التاريخي، و هناك إمكانية واحدة و هي أن أي مجتمع أنثوي ودود سيتطور على نحو طبيعي في اتجاه الزواج الأحادي (و من الواضح أن الارتباط لم يكن حقيقياً: و لم تكن أثينا أحادية الزواج مكاناً جيداً للمرأة على وجه الخصوص، و هناك صمت يتعذر تفسيره عن موضوع بنية العائلة الصحراوية خلال العصر العربي؛ هل يعود عدم

---

[174] ابن بطوطة: الرحلة، تحقيق طلعت حرب، ص. 688. يقول ابن بطوطة: "..فعجبت من رعونته، وانصرفت عنه، فلم أعد إليه بعدها، واستدعاني مرات فلم أجبه." المترجم.

[175] Corpus, pp. 285-286; 301.

ابن بطوطة: م. س، ص. 687. يقول: "..وهن أعظم شأناً من الرجال". المترجم.

[176] بخصوص ذكر العينات ينظر:

Barth, Travels IV, p. 486; Briggs, Tribes, pp. 133-134; Lord Rennell of Rodd, People of the Veil (Oosterhout, Netherlands: Anthropological Publications, 1966, reprint of 1926 edition), pp. 167-168; James G. Jackson, An Account of Timbuctoo and Housa (London: Frank Cass and Co., 1967; reprint of 1820 edition), pp. 34-35; and Edward Ward, Sahara Story (London: Robert Hale Ltd., 1962), pp. 98-100.

تعليق العرب عليه إلى أنهم لم يروا فيه ما يستحق التعليق عليه، ما يعني أن الصحراويين التزموا بالنموذج نفسه، و هو نظام تعدد زوجات معدل، كما هو حالهم؟ و هذا افتراض مبالغ فيه. و من الناحية الأخرى لا يوجد دليل يشير إلى أن التحول تم أثناء فترة التغيير الغريبة تلك التي بين بروكوبيوس و اليعقوبي. و على أية حال لا يجب أن يشوش هذا الحدث على موضوع العلاقات الأكثر عمومية بين الجنسين الذي يقف بوصفه أحد الخيوط الهامة في استمرارية الكيان الثقافي الاجتماعي في المصادر الأدبية.

و مهما كانت العلاقات بين الجنسين مقنعة، فهي ليست كافية لإثبات أن ليبيي هيرودوت أصبحوا صنهاجة ابن خلدون، و ليس هناك دليل ملموس عند فحص مظاهر التواصل الثقافي، و هناك، من ناحية ثانية فطرة سليمة؛ و يلاحظ بروكوبيوس في فقرته الأخيرة، أن الجيش البيزنطي قتل "جزءا كبيرا" من المغاربة في إحدى المعارك، و لكن فقط بعد أن قتل المغاربة ليبيين كثيرين: "و بذلك حدث أن أولئك الليبيين الباقون، قليلون في العدد كما كانوا، و فقراء معدمون، وأخيراً بعد كدح عظيم وجدوا شيئًا من السلام."[177] فهل يمكن أن يكون هذا دليلا على نظرية التهجير، وإذا كان السكان الأصليين أبيدوا على نطاق واسع، هل حل محلهم أصحاب ألثمة مرفرفة لإعادة استيطان الأرض؟ و لم يترك بروكوبيوس الانطباع بأن شمال أفريقيا كان يعاني من نقص في عدد السكان. و يلاحظ، في وصفه لتجمع القبائل لخوض المعركة، "و كانت بطون الأودية، و منحدرات الهضاب مليئة بقبائل لا تحصى عدداً، يغطون السهول و الأنهار في التفافات كبيرة. و تختفي الأراضي المجاورة تحت كثافة كتائب المحاربين... و لا توجد قمة أي جبل شاغرة... و الهواء نفسه صار محدوداً بسبب الحشود التي تعيش هناك." و يسأل، " يا له من شاعر ملهم ذلك الذي يعرف كيف يصف لي حشوداً كبيرة للغاية؟"[178]

و لا يجب فهم أي كاتب على نحو حرفي أكثر مما ينبغي، فقد كان كوريبوس شاعراً قصد بعمله إحياء ذكرى القائد جون تروقليتا، و كان بروكوبيوس مؤرخاً جيداً، و لكنه لم ير تناقضًا في القيام أيضاً بدور الداعية و المدافع. و لم يتردد أي كاتب في المغالاة في أهمية النضال، و في الوقت الذي يؤكد فيه بروكوبيوس على طبيعته الدموية، يؤكد أيضاً أن تعدد الزوجات سمح لكل محارب مغربي بإنجاب ذرية عديدة. و كان يمكن شراء عبدا صغيرا بثمن نعجة واحدة إثر حملة وحشية للغاية.[179]

و في الواقع تعرض شمال أفريقيا لإنقاص في عدد سكانه قبل و بعد هذه السلسلة من الصدامات الاستثنائية.[180] و فوق ذلك يظهر دائماً نحوض في النمو السكاني من جديد.[181] و لم يبد ليبيوا بروكوبيوس ولا مغاربته في هذا الزمن أو في أي زمن آخر إلى غاية اليعقوبي، و لم يهاجر سكان شمال أفريقيا إلى مكان ما آخر، و لم تقحم الغزوات الكبيرة في هذا العصر شعب يكفي عدده لإحداث تغيير في التركيبة العرقية للإقليم. والغزو الوحيد لشعب ما هو ذلك الذي يمثل

---

[177] B.V. IV.28.51-52.
[178] Zarini, Berberes, p. 121.
[179] B.V. IV.11.13; 12.27.

[180] ينظر، على سبيل المثال، الملاحظة التي أبداها سالوست منذ ستة قرون في B.J. X.92.4.

[181] على العكس من وجود فرضيات بين كل من القدماء والمحدثون، بينت دراسات حديثة أن شمال أفريقيا لم يكن إقليم بكثافة سكانية كبيرة. ينظر:
Robert Sallares, The Ecology of the Ancient Greek World(Ithaca: Cornel University Press, 1991), pp. 377-380, and Brent Shaw, "Climate, Environment and History: The Case of Roman North Africa" in T.M.L. Wigley, M. J. Ingram, and G. Farmer, eds., Climate and History: Studies in Past Climate and their Effect in Man (Cambridge University Press, 1981), p. 391.
ومن ناحية ثانية، يتركز اهتمام هذه الورقة على موضوع من كان هؤلاء السكان أكثر من اهتمامها بمسائل ديموجرافية محددة لا تصل إلى حد الإزاحة الكاملة التي لا يوجد عليها أي دليل. short of complete depopulation, for which no evidence exists.

الوندال في أواسط القرن الخامس الميلادي، و هو ربما تألف مبدئياً من خمسين ألف مقاتل نما في آخر الأمر إلى ثمانين ألف، و وفقاً لبروكوبيوس، "هم كثيرو العدد على نحو متزايد."[182] و من ناحية ثانية لم يتزاوج الوندال مع السكان المحليين، و قاسوا أيامًا عصيبة في القرن السادس الميلادي، بسبب هزائمهم المتوالية إلى أن استنفذ عددهم. و أخيراً تمكن القائد البيزنطي "سولومن" فيما بين سنتي 539 و 540 م "من إزاحة أولئك الوندال الباقين لا سيما نساؤهم من ليبيا كلها."[183] و كانت القوة الغازية الوحيدة الأخرى هي الجيش الإسلامي العربي الذي غزى شمال أفريقيا في أواخر القرن السابع الميلادي و هو مجرد جيش احتلال، و ليست هجرة بهدف الاستيطان، و انتقلوا في الحال إلى اسبانيا. وباختصار لا يوجد دليل يدعم مخطط إحلال أُناس محل آخرين، والنتيجة الوحيدة المعقولة التي يمكن الوصول إليها هي: أنه على الرغم من اختلافاتهم الكثيرة فإن الناس الذين كان القدماء يشيرون إليهم بوصفهم ليبيين أصبحوا صنهاجة وزناتة، و من الممكن أن يكون الدليل السلبي أحياناً هو الحاسم.

و بعد تتبع المصادر الأدبية التي تهتم بالصحراء و بكثير من بقية شمال أفريقيا، و بعد أن استخلص منها نتف ثمينة من المعلومات لتستعمل بوصفها مادة صمغية في بناء الانتقال بين المداخل وصلنا إلى إدراك أفضل لما لا نعرفه، و يحتمل أننا لا نستطيع معرفة أكثره، و من الملائم إرجاع أي عجز إلى مصادرنا، إذ أن التدقيق الذي نستعمله اليوم في فحص المعطيات و الدقة التي ننشدها مفهومة كثيراً من قبلهم. و لا يمكن لوم الكتاب الكلاسيكيين و العرب على أحد مصادر الارتباك الرئيسة: إذ أن الجماعات ـ عشائر، و قبائل، و اتحادات، و كيانات عرقية كاملة ـ هي في الواقع تأتي و تذهب فعلا، فقد كانوا مرنين، و ليسوا جامدين، و متآلفين، و متفرقين، و متغيرين، و أحياناً يتخذون أسماء جديدة أو تخصص لهم، و هي تختفي أو يعاد تخصيصها عند زيادة الاندماج، و الانقسام، و التغير.

إن مفهومنا الحديث للتصنيف العرقي واضح جداً، و إذا افترضنا أن القدماء كان لديهم مفهوم مشابه، فنحن نخدع أنفسنا، فقد كانوا يصفون "الآخرين،" على أنهم مختلفين عنهم، و حينما يطلقون اسماً على هؤلاء الآخرين فإننا نضفي عليه مفهوماً وفقاً لأفضل ما يمكننا تخمينه ابتداء من عشيرة إلى صنف عرقي معين أو عدة أجيال مضت أو حتى ما يسمى "سلالة". و سنواصل تطبيق هذا و لكن محتفظين في الذهن دائماً بأن المفتاح لفهم مجموعات تظهر و تختفي في التاريخ الصحراوي هو المرونة، و سيكون البحث عن الدقة المفروضة اصطناعياً، أو الدقة شبه العلمية درس في الإحباط.

و يجب أن لا يثير ختم هذه الورقة بتحذير القلق، إذ لا يوجد أي مؤرخ يختار رؤية التاريخ بوصفه فوضى لا معنى لها و لا تعبر عن أي شيء، و من الناحية الأخرى فإن أغلب التاريخ و كل التاريخ القديم عملياً ليس حزمة دقيقة مرتبة لأسباب و تأثيرات مقنعة موجودة في أغلب كتب المسح المدرسية لطلبة في بداية حياتهم الجامعية، و يبدو أن التاريخ الخالي من الثغرات حين محاولة التحري عن القادمين و الذاهبين من الشعوب القديمة هو تناقض في حد ذاته.

****

[182] B.V. III.5.20.
[183] B.V. IV.19.3.

قائمة المصادر والمراجع التي استعان بها المترجم

أولا الأجنبية:

- Herodotus, the Histories: translated by Aubrey de Selincourt, Revised, with an introduction and notes by A. R. Burn, Penguin Books, 1977.

ثانياً العربية:

- أبن بطوطة: الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار(725-754/1324-1353)، شرحها وكتب هوامشها طلال حرب، دار الكتب العلمية، (من دون تاريخ).
- ابن حوقل، أبي القاسم النصيبي (ت ؟ 380/966): كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت (من دون تاريخ).
- ابن خلدون (ت 808/1405): تاريخ العلامة ابن خلدون، مج4، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1968.
- ابن سعيد المغربي، أبي الحسن علي بن موسى (ت 685/1286): كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1970.
- البكري (ت 487/1094): المسالك والممالك، 2، حققه وقدم له وفهرسه أدريان فان ليوفن، وأندري فيرى، بيت الحكمة قرطاج، والدار العربية للكتاب (طرابلس – تونس)، 1992.
- بطوليميوس، كلاوديوس: جغرافية ((وصف ليبيا (قارة أفريقية) ومصر)) ترجمة د. الدويب، محمد المبروك: جامعة قاريونس، بنغازي، ط 1، 2004.
- خشيم، علي فهمي: نصوص ليبية، الطبعة الثانية، دار مكتبة الفكر، طرابلس، 1975.
- 10- بيروت، ط 1، 1987/1407.
- سترابون: الكتاب السابع عشر (وصف ليبيا)، ترجمة د. محمد المبروك الدويب، جامعة قاريونس، بنغازي، ط 1، 2003.
- الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928/1522): كتاب السير، 1، تحقيق أحمد بن سعود السيابي، الطبعة الأولى، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة، 1987/1407.
- القشاط، محمد سعيد: الطوارق عرب الصحراء الكبرى، ط. 2، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، ليبيا، 1989.

- كوريبوس فلقيوس (القرن السادس الميلادي): ملحمة الحرب الليبية الرومانية، ترجمة وتحقيق د. محمد الطاهر الجراري، مركز دراسات جهاد الليبيين، طرابلس، 1988.
- محمد يوسف نجم/ إحسان عباس: محمد يوسف نجم/ إحسان عباس: ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، 1968.
- هيرودوت: (الكتاب السكيثي والكتاب الليبي)، ترجمة د. محمد المبروك الدويب: جامعة قاريونس، بنغازي، ط 1، 2003.
- ياقوت الحموي (ت 627 / 1229): معجم البلدان، المجلد الثالث، مكتبة خياط، شارع بلس، بيروت، (من دون تاريخ).
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت 897/284): البلدان، مع الأعلاق النفيسة لابن رسته، ليدن، 1891.